وليد إخلاصي



www.moc.gov.sy

الحروف التائهة

رواية

قصص وروايات 9

الحروف التائهة

وليد إخلاصي

الحروف التائهة

رواية



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠٧

الحروف التائهة / وليد إخلاصي .- دمشق : وزارة الثقافة ، ٢٠٠٧ .-

١٧٦ ص ؛ ٢٤ سم .

(قصص وروايات ؛ ٩)

١- ٨١٣,٠٣ إ خ ل ح ٢- ٨١٣,٠٠٩٥٦١ إ خ ل ح

٣- العنوان ٤- إخلاصي ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

قصص وروايات

«٩»

البـدايــات

-١-

– كان يوم الاثنين استثنائياً لا يشبه أيام الأسبوع الأخرى. وفي ذلك اليوم يحدث عادة ما هو مخالف للالتزام الصارم بالدوام الطبيعي في المدرسة، فالدقائق السابقة لحصة بعد الظهر الثانية تشهد حركة تسلل ناشطة لمجموعة من طلاب الصف النهائي، فقد تعوّد الرفاق السبعة أن يتجمعوا في الساحة الخلفية للمدرسة بحذر ويقظة تعبر عن تضامنهم على الاختفاء عن أعين المراقب والطلاب الآخرين، وإذا ما تسلقوا السور بخفة القرود انتقلوا إلى الشارع وتعالت صيحاتهم الخافتة تعبيراً عن نصر لم يعرف الفشل مرة واحدة. وتبدأ خطواتهم تقود الرفاق إلى شارع (بارون) وكأنهم على موعد مقدس مع عرض لفيلم جديد يقدم في واحدة من دور السينما هناك.

(الاثنين) ثالث أيام الأسبوع، وقد لعب دوراً في تشكيل سلسلة لأيام لا تنسى في فتــرة الخمسينيات من القرن العشرين، وابتدأت فعاليته المنتظمة منذ أيام التحضير لشهادة (الكفاءة) التي انقضت منذ سنوات مع استعداد الطلاب لدخول امتحانات (البكالوريا) التي لم تكن شهادة تتوج المرحلة الثانوية فحسب بل (البعبع) الذي يقض مضاجع الطلاب.

كانت ثانوية (التجهيز الأولى) الأكثر حيوية من بين المدارس والمؤسسات في المدينة، فهي القطب الذي يتجمع في ساحته نشاط الإضرابات في تلك الأيام والتي يشارك فيها الطلاب وأحياناً العمال وفئات من الأحزاب المختلفة، وكان المناخ السياسي لحلب يمهد الطريق أمام تلك الأحزاب لتتغلغل في حياة الثانوية بأساتذتها وطلابها فتجعل منها ساحة لصراعاتها وتنافسها في جذب الأعضاء إليها. وأما الرفاق السبعة فكان يجمعهم يوم السينما ليوحدهم بقوة بالرغم من تباين ملحوظ ولكنه غير مكشوف في أفكارهم. وكان (الاثنين) يأخذ عندهم أحياناً عنوان فيلم ما أو اسم ممثل فيه فيصبح شعار أسبوع لهم أو أكثر، فيقولون (اثنين ذهب مع الريح)، أو (اثنين جاري كوبر) أو (اثنين جوني ويسملر) هو الأفضل هذا الأسبوع. وهكذا كانت الأفلام الأميركية التي تحتل معظم دور السينما هي محور أهم أحاديث الرفاق في المدرسة وكذلك في الحديقة العامة يوم الجمعة أو في المستودع الذي يترددون عليه أحياناً وكان من أملاك والد (مجاهد) أغنى الرفاق السبعة. وفي لقاءاتهم كانوا يدخنون ويقلبون صفحات مجلة إباحية، وكانوا في أحايين متفرقة يتناقلون فيما بينهم زجاجة النبيذ الوطني يشربون منها مباشرة كما يفعل أبطال أفلام رعاة البقر دون أن يصل أي منهم إلى فقدان التوازن. وفي كل اللقاءات تلك لم تغب عنها السخرية والتعليق الضاحك على سلوك عدد من الأساتذة.

وكان السبعة رغم كل شيء من المجدين في الدراسة يعيرونها الاهتمام الدائم ويعتبرونها الشاغل الأكثر قيمة لهم في البحث عن المستقبل، إلا أنهم مع ذلك برعوا في إخفاء أسرارهم العاطفية يحتفظون بها لأنفسهم مبعدين عنهم أي فضول، وإن كانوا متفقين على وحدة تلك

الأسرار التي كانت في خلاصتها تدور حول أمر واحد هو حب فتاة واحدة. (فضيلة) كانت السر الذي يختبئ بحرص في صدور الفتية المتطلعين إلى رجولة قادمة.

(فضيلة) الذهبية الشعر والخدين. الدمية المليئة بالحياة. الشجرة التي تفتحت أغصانها فجأة عن الأوراق الريانة وكأنها تشهد ربيعها الأول. فضيلة القادمة من عمق سحر انفجر فضاء المدينة به. فضيلة مركز دائرة تدور في محيطها عيون زائغة ذاهلة. وكانت الصبية في قدومها إلى المدرسة القريبة تشد الأبصار إليها، وفي انصرافها تسحب آهات الرجال من خلفها. وكثيراً ما كان عدد من الطلاب يهرب من المدرسة ليعيش لحظات المراقبة الماتعة للصبية. ويبدو أن الرفاق السبعة كانوا أيضاً أعضاء في جيش المعجبين بالتلميذة الرائعة. كان المدلهون في حوارهم مع النفس يطلقون اسم (مدرسة فضيلة) على ثانوية البنات التي كانت تبعد عشرات الأمتار عن مدرستهم، وقد عُرف اسم الصبية فجأة فتداوله المفتونون بها كشعار يُجمع عليه. وقد عمدت مديرية المعارف إلى تحديد المواعيد في المدرستين لتكون مختلفة تحاشيًا لخطورة التلاقي بين الشباب والبنات وحفاظاً على الأخلاق العامة.

(فضيلة) كانت تدرك أهمية ما تحمله من جمال وأنوثة مبكرة، فكانت تجعل عودتها إلى الدار طويلة فتمر بالرصيف المقابل لقاعات الدراسة في ثانوية الطلاب كي تجتذب رؤوسهم وهم يطلون عليها من النوافذ وقت مرورها الموقت بانتظام دقيق. هي تمشي بخيلاء متباطئ وقد ضمت كتبها إلى صدرها غير مكترثة برؤوس الفتية المطلة بعيون جائعة فيما تتابع خطواتها وهي لا تلقي بالاً لأي مراقب وكأنها تتقن دورها بخبث

دفين. وعند نهاية الرصيف كانت تنعطف سالكة طريق حارة جانبية لتعود مسرعة في الاتجاه المعاكس قاصدة بيتها واضعة نهاية لمسرحية الإثارة اليومية. كانت في استعراضها شبه المنتظم تنفذ خطة اقتناص أكبر كمية من إعجاب الشباب الذي تلتقطه مسام جسدها بحنكة امرأة لم تدربها سوى الغريزة.

وامتد أثر الجنية التي حملت اسم فضيلة ليلحق بكثير من الطلاب والأساتذة بالإضافة إلى رجال من حي (الجميلية)، كما أن ذاك الأثر بات سلبياً على صبايا من يهود الحي، فقد شعرت الصبايا اليهوديات بالغيرة من فضيلة التي كانت منذ فترة مجرد فتاة صغيرة فإذا بها تتفتح فجأة لتحصد الإعجاب ضاربة رقماً قياسياً في فتنة الأنوثة ومتحدية بها بنات الأسر اليهودية اللواتي اشتهرن بقدرتهن على اجتذاب أكبر عدد من الشباب في الحي وخارجه. وكانت أسرة فضيلة تعيش في الطابق الأرضي من بناء قديم يقع في شارع جانبي تشغل العائلات اليهودية معظم دوره الستة. وبالرغم من حسد الفتيات الذي يأكل الصدور فقد أصبحت فضيلة زهرة الحي التي يقسم معظم أهله بحسنها ودلالها.

وكان الوالد (سامي أبو خشبة) قد أتقن في شبابه مهنة (الدوبيا)، فبات الآن ينظم حسابات عدد من أصحاب الخانات والدكاكين في سوق (المدينة) المتشعب بفروعه الكثيرة فتنتظم تنقلاته بين دفاتر التجار حيوية مشهود لها يشاركها طموح أب لا ينفك عن البحث على زوج مقتدر لابنته فضيلة يخرجها وأهلها من رطوبة الدار. وكان على يقين بأن الله الذي وهبه تلك الجوهرة سيجذب اليها أنظار تاجر معروف أو صناعي كبير أو

موظف مرموق من رجال الحكومة، فأرحام النساء لم تلد بعد فتاة كفضيلة. إلا أن الصبية الآسرة كانت في تلك الأيام غارقة في جمع الإعجاب بها من أكبر عدد من الذكور. ومع أن فضيلة كانت مجرد صبية تستعد لامتحانات (الكفاءة) إلا أنها بدت وكأنها تعادل في النمو طالبات (البكالوريا)، فقد أثارت مفاتنها الطبيعية غيظ المدرسات العوانس والمتزوجات أيضاً واللواتي استهلكهن العمل ورعاية أسرهن. كما ذهب الأساتذة من الرجال على قلتهم في مدرسة البنات إلى الوقوع في خلاف فيما بينهم، فإذا قال واحد بتميز الطالبة فضيلة استنكر آخر خروجها عن الحشمة والتقاليد بخاصة أننا على مشارف النصف الثاني من القرن العشرين وهذا يعني ضرورة العودة إلى الوقار بعد أن دفع العرب ثمن الضلال المتزايد فكان قرار التقسيم وإحداث دولة إسرائيل عقاباً إلهياً أنزل بنا نتيجة لتفسخ الأخلاق وخروج الناس عن شريعة الحق.

في (الجميلية) التي تنتسب إلى حاكم حلب العثماني جميل باشا، كانت تحدث أمور غريبة، يذكر منها ما رفعه بائع الفاكهة في وضع إعلان على مدخل دكانه كتب فيه (السداد بالنقد فضيلة والبيع بالدين رذيلة)، أو يسمي صانع (المشبَّك واللُقم) حلَّة (القطر) التي يُغرق بها عجائنه بما يسميه أنه (سكّر الفضيلة) الذي لا شيء حلو مثله. وبدا السلوك الخفي لمعظم أصحاب الدكاكين أنه يستمد حرارته من الإعجاب بزهرة الحي التي غرسها الله في تربته، إلا أن الشعور باحترام الجيرة وتفشي الحياء الديني الذي يضبط تصرفات الناس قد جعل الإعجاب بفضيلة غير متجاوز لحدود الآداب العامة.

- ٢ -

وفي أيام السنة الدراسية التي تقترب من أسابيعها الأخيرة، وقبل الانقطاع المبكر عن المدرسة لطلاب البكالوريا استعداداً للامتحان النهائي، أعلن عن إضراب كبير ضد الحكومة. ومنذ الصباح الربيعي تجمع الطلاب القادمين من معظم مدارس المدينة لتحتشد بهم ملاعب التجهيز وبوابتها، وكانت اللافتات القماشية ترتفع في الفضاء تندد بحكم (الشيشكلي) الذي تمسك رئاسته بالبلاد بقبضة حديدية، واشتركت معها الهتافات لتطالب بإزاحة النظام الذي جثم على صدر الشعب يخنق أنفاسه.

وتسلل إلى جموع الطلاب رجال من خارج التعليم ينادون بحرية عمل الأحزاب التي ألغاها الحاكم، ووجدوا في التظاهرة فرصة يختفون وراءها للتعبير عن سخطهم. وكانت الثانوية مركزاً لنشاط كافة الأحزاب التي حجر عليها، وقد مثل أساتذة في الثانوية مع عدد من طلابها تطلعات أحزاب عديدة، منها ما كان جديداً على الساحة السياسية كحزب البعث الذي بات مع العربي الاشتراكي حزباً واحداً، ومنها القديم كالشيوعي الذي نشط منذ عقود، وكان هناك الحزب القومي السوري، وكذلك جماعة الأخوان المسلمين التي تخفت وراء ناد يمارس فيه الأعضاء نشاطات رياضية وثقافية مختلفة إلى جانب ندوات الدعوات السرية. وقد استمر تدفق المتظاهرين إلى أن غطت أقدامهم كل شبر من فضاء المدرسة فلم تشهد التجهيز مثل ذلك التجمع منذ اليوم الذي سبق انقلاب (حسني الزعيم). جاء قمع الزعيم للتظاهر، وكان رئيساً للشرطة العسكرية آنذاك، بداية لحكمه العسكري الذي لم يعمر طويلاً.

واجتمع الرفاق السبعة على اختلاف مواقفهم السياسية المحددة أو العابثة في صفوف المظاهرة وجعلوا يرددون مع الجميع هتافات بسقوط الشيشكلي ونظامه، إلا أن أحدهم وهو (حامد) كان أقلهم حماسة وكأن مشاركته لم تكن سوى تعبير عن التضامن غير المحدود للرفاق ورفضه للافتراق عنهم لأي سبب كان، وكان مع (أحمد) بعيدين عن تأييد أي حزب أو جماعة أو انتماء إلا أنهما لم يدخلا في حوار أو خلاف مع بقية الرفاق، ولم يبعدهما ذلك الموقف عن ميل يرمي إلى تأييد أي اتجاه سياسي يعادي حزب (التحرير) الذي أحدثه الشيشكلي كي يمنح نظامه شرعية مدنية كحزب وحيد.

وظهرت الغيوم في السماء فجأة، وكأنها تريد بتجمعها في الفضاء أن تنافس حشود المظاهرة. ولم تمر دقائق حتى انقضت الغيوم قتاماً ومطراً دفع زعماء التجمعات إلى إعلان التحرك للخروج إلى الشارع باتجاه الهدف المتمثل في السراي الحكومي. وما إن ابتدأ تدفق المتظاهرين من البوابة الحديدية حتى برزت من المنعطف القريب فرقة من الجنود في ألبسة القتال شاهرة حراب البنادق وهي تهرول بخطوات تحدث إيقاعاً بأحذيتها يتناغم مع هجمات همجية لا تحمل معنى سوى نشر الرعب في صفوف المتظاهرين. وما إن اقترب الجنود من طليعة المظاهرة حتى تدافعت صفوفها هاربة وهي ترتد بذعر إلى داخل السور على إيقاع البنادق التي لفظت رصاصها في الهواء بتواتر منظم. وانتشر الطلاب في كل اتجاه يطلبون النجاة وهم لا ينقطعون عن ترداد الشعارات بصراخ متقطع. وجعل أفراد من الطلاب يتسلقون الأسوار ولجأ عدد منهم إلى داخل الأبنية والاحتماء بغرف الصفوف أو القاعة الكبرى التي تتحول

أحياناً إلى مسرح يقدم عليه النشاط المدرسي خارج مواعيد إطعام الطلاب الداخليين المقيمين في المهاجع. وبدت التجهيز بأبنيتها الحجرية الراسخة وفضاءاتها العديدة كخلية نحل مذعورة.

وكانت الشاحنات العسكرية تصطف أمام مدخل المدرسة وقد سبق ظهورها هدير نافس صوت الرعود، وتحول المتظاهرون في الداخل إلى صيد لا يخيب. ويومها سجل للجنود انتصار وهم يسوقون الطلاب إلى داخل الشاحنات بقسوة لم تعرف من قبل، ولم يسلم أحد من الموقوفين من وخز حربة أو ضربة أخمص البندقية فانقلب الهتاف إلى صراخ أو استغاثة أو لعنة. وكان (حامد)، في لجوئه إلى أغصان شجرة ظلت لسنين طويلة حارساً أميناً تظلل أغصانه رقعة من ساحة الملعب، يراهن على تخفيه الذي رافق معاينته للمعتقلين بحثاً عن أحد فيهم من جماعة السبعة. وقد أتاح موقع حامد على الشجرة أن يشاهد رفيقه (رشيد) يقاوم ضرب الجنود له فلا يكف عن الصراخ هاتفاً بسقوط الديكتاتورية، وقد رافق سوقه إلى الشاحنة دعاء حامد له، كما لاحقت عيناه بعد ذلك مشهد محاصرة (مجاهد) و (سليم) و (هايل) وهم يستسلمون للجنود، فانطلق متمتماً باللعنة تتنزل عليهم لعجزهم عن تسلق السور الخلفي الذي طالما كانوا ينجحون فيه أيام الهرب إلى سينما الاثنين. وكان شعور الخوف على جماعته يأتي من أن يؤثر ذلك الحدث على امتحانات آخر السنة، وأدرك أن كل يوم يمر دون الاستعداد للشهادة سيؤثر على المستقبل، وعلم أن الأزمة لابد من حل لها بعد أن توقف المطر فجأة.

ولبث حامد مختبئاً بين الأغصان لا ينفك بصره باحثاً عن ما بقي من الرفاق، فعلم أن (أحمد) و(تركي) قد نجوا بنفسيهما وأن انسحاب الجنود قد

انتهى، فتسلل آنذاك إلى الأرض لينطلق راكضاً باتجاه القلعة قاصداً الدار بعيداً عن مركز المدينة عبر الأزقة والحارات الخلفية، وكان في لهاثه يزداد يقيناً بأن البلاد تعلن عن استسلامها للقوة التي سيطرت على كل زاوية فيها.

وفي مساء ذلك اليوم اغتنم حامد فرصة الانتهاء من صلاة المغـــرب التي يؤمها والـــده (الشيخ عصفور الجنة) فترتص صفوف المصلين خلفه بخشوع مسلمة بإمامته التي تفتح لهم النوافذ لطاعة الله. قبّل يد الشيخ وهو يرجو أن تكون له خلوة مع والده في مجلسه الملحق بالمسجد المجاور للدار. غمره الشيخ بابتسامة راضية وقاد ابنه إلى غرفة الخلوة عبر الصحن الذي غسلته الأمطار، وكانت القلعة تطل على المكان كرقيب بالرغم من عتمة المساء وتشارك بجلالها هيبة المسجد الذي شهد طقوس العبادة لأجيال عديدة. احتل الشيخ عصفور مكانه خلف المكان ولبث فترة يراقب فيها ابنه الذي التزم الصمت يُحار في إيجاد مدخل للحديث. هتف الشيخ عصفور بصوت عميق:

«يبدو أن مشكلة ما تريد أن تحدثني عنها»

وتابع متسائلاً بحذر الأب إن كان أمر ما يعيق الدراسة أو أنه يشكو من علّة، آنذاك استجمع حامد شجاعته ليتدفق بالحديث عن حادثة الصباح في المدرسة وما رافقها من اعتقال لمئات الناس كان من بينهم خمسة من الرفاق الذين يعرف الشيخ معظمهم. وقال متوسلاً :

«ليس لنا غيرك. الامتحانات على الأبواب ومستقبل أصحابي في خطر»

ولم يمنعه صمت والده من القول بأن مكانته في المدينة تسمح له بالتدخل فرجال الحكومة يصغون إليه ويقدرون مكانته وبخاصة رئيس المكتب الثاني الذي لا غيره يهتم باعتقال المواطنين وهو الذي يخلي سبيلهم، وهتف حامد بضعف :

«ليس لهم غيرك»

كان الشيخ عصفور يحمل لابنه الوحيد من بين الأخوات الثلاث محبة خاصة ويحلم له بمستقبل لائق، إلا أنه في اللحظات تلك لم يملك من أمره سوى متابعة الصمت الذي يصاحبه تأمل عميق وتفكير باحث، فقد كان يدرك خطورة ما يطلبه منه في الوقت الذي يعلم الجميع ما يمكن لمكانته أن تفعل من تدخل مع كبار المسؤولين. قال الشيخ بعد قليل:

«إنها قضية سياسية يا ولدي، وأنا أخشى عليك من رفقة هؤلاء الأصحاب»

وعاود حامد الرجاء مستغلاً عاطفة الأب الذي دل شحوب وجهه في الأيام الأخيرة على ضعف هو الذي دفعه إلى القول مستسلماً:

«سنرى ما سيأمر به الله في أمر أصحابك»

وسيضيف بقوله آمراً ومحذراً :

«ما عليك إلا الالتفات إلى دروسك، فأنا لا أقبل إلا بتفوق يليق بك»

آنذاك انكب حامد على أبيه يقبل كفيه وكتفيه، ولينطلق بعد ذلك إلى الدار عبر المدخل المشترك مع المسجد، وقد غمره الرضى لما فعله تجاه رفاق حياته.

- ٣ -

والتأم شمل الرفاق من جديد، سبعة من الفتية يشبهون اكتمال الأسبوع بأيامه المتلاحمة. اجتمعوا في مأواهم المفضل الذي يضمهم في انتظام من وقت لآخر. وتحولت مساحة المستودع الكبير إلى ساحة صاخبة تحتفل بالتئام الشمل، وكانت صيحات الفرح وكلمات التهاني المتبادلة تشير إلى فرح الجميع باللقاء بالرغم من أن حادثة المدرسة لم يكن قد مر عليها سوى يومين. وكان المزاح يحول كل ما حدث إلى متعة تدور في المكان.

أبدى العائدون من الاعتقال إعجابهم بدور الشيخ عصفور وبإخلاص حامد لرفاقه. وسجلوا دهشتهم من قدرة الشيخ على الإفراج عنهم بعد يوم وليلة من احتجاز ذاقوا فيه أنواع من ضروب الاستجواب وأفانين الإهانة، وعلق أحدهم بقوله إن ضرب الحبيب ليس كأكل الزبيب فصاح آخر :

«أي حبيب أيها اللبيب»

وظهر في اجتماع المستودع تلاحم لافت بين الرفاق السبعة أخفى تباين الأفكار والانتماء إلى أطراف سياسية مختلفة. وفي تلك الأمسية تجلت صراحة عدد من الرفاق بالانتماء إلى طرف ما، وكان هذا يحدث للمرة الأولى. قال (رشيد) إن الحزب الشيوعي الذي يؤمن به لن يتراجع عن إيمانه بالمبادئ التي ينادي بها بالرغم من شراسة النظام العسكري الذي تستر الشيشكلي بواجهة مدنية كي يغطي عليه. وهتف (مجاهد) باعتزاز أن المستودع الذي يعود إلى أملاك أبيه يسجل للتاريخ ثورة واحد من الأبناء على تقاليد العائلة المزيفة، وأن هذا المكان يشهد الآن ظهور روح متمردة تتطلع إلى حرية العقل في وقوفها أمام طبقة اجتماعية لن تشفع لها أموالها بالسيطرة على روح الشباب. وكان (سليم) في تحركه بين الرفاق يردد اعتقاده بقيمة

الانتماء إلى حزب البعث الذي ولد حديثاً ويعمل بشجاعة لا تضعفها سريته، وقال متفاخراً أنه بالرغم من تستر الحزب يعلن صراحة أمام الرفاق بأنه سيظل الصديق الدائم لعصابة السبعة، ويطالب بأن يُقسم الجميع على الحفاظ على هذه الصداقة طوال العمر. وجاءت دعوة سليم الجادة في غير وقتها لما كان عليه الاجتماع من هذر ومزاح، ومع ذلك اندفع الرفاق إلى الهمس بما يفيد بالقسم على الصداقة القائمة. وكسر الصمت تململ (هايل) وهو يعد نفسه لقول ما يجيش به صدره، وتوجهت الأنظار إليه وهو يعترف بأنه كان قبل الاعتقال متردداً في الانتماء إلى جماعة الأخوان المسلمين، إلا أن الصفعات التي نالها في الثكنة دفعته إلى اتخاذ قراره في التفكير جدياً أن يكون ذات يوم واحداً من أعضاء الجماعة، ويظن أن الله سيكون بجانبه لأنه سيختار الجانب الرابح. وجعل (تركي) من موقعه فوق بالة أكياس الخيش يستعد للإدلاء بتصريح على طريقته في الإيجاز الخجول الذي عرف به:

«أؤيد ما يقوله الرفاق شريطة ألا يكره يوماً على الإيمان بعقيدة سياسية أو الالتحاق بأي حزب كان»

وكان (أحمد) آنذاك يفصح عن ابتسامته التي يلجأ إليها عادة فيقول إن الفن لا يدفع صاحبه إلى الارتباط بأية جهة في هذا العالم، ويؤكد على أنه سيبقى وفياً لريشته وألوانه، وهتف ضاحكاً:

«ستصاب البلاد بالخراب إذا تعلق التعسف أو اعتقال الناس بأمر له علاقة بالإبداع»

وظل (حامد) يصغي إلى اعترافات الرفاق التي أعلنت عن نفسها لأول مرة منذ بداية الصداقة التي جمعتهم، وبدا أكثر تأملاً وهدوءاً من البقية، إلا أنه تكلم فجأة قائلاً بدعوته الرفاق إلى ضرورة تقديم الشكر لوالده الشيخ الذي

كان لتدخله الفضل في الإفراج عن الموقوفين، فانتشرت همهمات الموافقة على زيارة الشيخ، ثم ما لبث الاجتماع أن تحول إلى الحديث عن برنامج (الاثنين) القادم ونوع الفيلم السينمائي المتوقع حضوره، وليختلط بعد قليل باستعراض خطوات الاستعداد للامتحانات القادمة.

هتف حامد في سره بعيداً عن صخب الآخرين:

«ومتى تكتحل العين برؤية فضيلة ؟»

ويبدو أن أفكاراً مماثلة كانت تدور في عقول الآخرين فانتشر وجوم على الوجوه يسبح أصحابها في فضاء خيال تتحرك الصبية في أرجائه كفراشة، وباتت فضيلة نقطة التقاء الأحلام السرية للرفاق، فكان المستودع يغلي بحروف اسم فضيلة المتطاير كفرح دفين.

تساءل تركي فجأة:

« أترانا سنجتمع من جديد بعد ظهور النتائج وتفرقنا في كليات مختلفة ولربما في بلاد متعددة ؟»

وفي سره كان يقول:

« هل تختفي أيام المدرسة هكذا فلا تبقى فرصة في رؤية فضيلة ؟»

وعلق أحمد على التساؤل بأن عهد الصداقة هو الذي سيجمع الرفاق من جديد بالرغم من كل شيء، وقال:

«ليس عبثاً أن نكون سبعة كأيام الأسبوع الذي لا تتكسر أبداً سلسلة تتابعه»

وعادت البهجة إلى المكان وهم يجمعون عل أن الأمسية هذه لن تكون علامة في يومهم دون التوجه إلى (أبو عبدو) وتناول (الفول) في عشاء قد يكون الأخير قبل الامتحانات التي ستسيطر على أسابيعهم القادمة.

- ٤ -

تدلّى المصباح الكهربائي من سقف العلية ليغمر بوهجه الكتب والأوراق المنتشرة على سطح المكتب الصغير لحامد، وكانت آثار النور تتسرب من زجاج النافذة التي يعتصم في غرفتها طالب البكالوريا. ورمق الشيخ عصفور خلوة ابنه بحنان وهو يعبر صحن الدار متجهاً إلى المسـجد. كان قد انتهى من الوضوء قبل صلاة الفجر فتوقف متأملاً العلية بإعجاب وهو يحصن ابنه بآيات ينفخ بها في الفضاء ويدعو الله أن يعين صغيره في دراسته، وكان مثل هذا الأمر يحدث بانتظام في الأيام الأخيرة.

وفي فجر يوم سبق الامتحانات بأيام قليلة قرر الشيخ أن يصعد إلى ابنه فجعل يطوي الدرجات بخطوات متثاقلة وهو ينادي على حامد برقة، ثم ما لبث أن طرق الباب بخفة ليدفعه بعد ذلك لينفتح له على حامد الذي كان وجهه يشع ببهجة المفاجأة، وانكب الابن على يد الوالد يقبلها معلناً عن سعادته بالبركة التي حلّت عليه. أخذ الشيخ عصفور مكاناً على الكرسي الوحيد في الغرفة الضيقة وأخذ يسأل عن الأحوال ويبارك سهره وانقطاعه للعلم، فكانت نظراته الحانية تمسح عن حامد إجهاده واحمرار عينيه الذي زاد منه نمو لحيته ليبدو كسجين في كهف. وانطلق الابن بالقول أن الله ودعاء والده واستعداده على مدار الأيام قد اجتمعت كلها قوة تعده للمعركة الحاسمة. آنذاك افترّ ثغر الشيخ عن ابتسامة عريضة لذكر المعركة فقام يتحدث عن المعركة الحقيقية التي لم تبدأ بعـد، وقال باهتمام:

«الحياة ما تزال في أولها يا ولدي، وأما دراستك للطب فستكون بداية المعركة» وأضاف وهو يقلب كتاباً يربض على المكتب:

«المعركة الحقيقية ستكون عندما يعلم الناس أنك تقدم العون لهم، آنذاك سيهتفون بإخلاص هذا هو ابن الشيخ عصفور الجنة»

آنذاك طوى حامد أوراقه، وتحفزت عيناه بلمعان كبؤرتين من نور، وطلب الأذن في أن يستمع إلى جواب عن سؤال مازال يلح عليه منذ سنين، ولمح الموافقة من الشيخ فقال:

«لم باتت العائلة تكنى يا والدي بالجَنة، وقد جاء في أوراق قديمة أنها كانت تسمى بالحِنة ؟»

وتمتم حامد بخجل:

«هل كانت النقطة قد أضيفت إلى الحاء لتصبح جيماً نتيجة لمصادفة أم لأمر آخر؟» ابتسم الشيخ وقام يمسح على رأس ابنه وهو يقرأ سورة (الفلق)، فتجرأ حامد على السؤال من جديد:

«أهو خطأ في التنقيط أم أننا حقاً من عائلة الجنة؟»

أجاب الشيخ وهو يتوجه نحو الباب:

«أترانا ننتسب إلى الحِنة وهي شأن دنيوي، أم أننا نطلب الجَنة يا ولدي؟»

وحيداً في العلية من جديد يسبح في بركة الحيرة. لم يفتح كتابه، بل ظل فترة من الزمن المشوش يقلب أقوال الشيخ وهو يفكر في معنى زيارته المفاجئة على غير عادة منه. كان يفكر في سحر اللغة ودور (النقطة) فيها، وعندما استحضر اسم فضيلة لم يجد فيه فرصة لتغيير أو تحويل إلى شيء يدل على حقيقة الصبية التي كانت كالكمال غير قابل للتلاعب بحروفه

ونقاطه، وكأنها خلقت لتكون كما هي عليه. وظهرت فضيلة لساحة خياله نوراً يمتص أشعة المصباح، بل كانت ناراً تشعل الحمى في جسده.

حامد يحب فضيلة ويشتهيها. الجانب المجنون فيه يشتهيها وكذلك العاقل.

«أحب فضيلة وما من أنثى تعادلها».

وهو لا يتخيلها من دون النقاط التي تزخرف اسمها وهي ترضع قوامها الأشبه بالبرق الذي يخطف الأبصار. هو يمعن التحديق في حضورها المتجسد في فضاء العليّة كطيف قابل للّمس. هو يريد أن يتجاوز ثوبها الهفهاف لتلمس يده بل جميع حواسه لحمها الهلامي، ويريد أن يدخل في ثناياها فتتلمس أنفاسها بشرته وهي تدخل المسام، ويريد أن يحتك جلده بحرارة إشعاعها فلا تقدر مياه البحر والأنهار على إطفاء شهوته. وباتت غيبوبة حامد في تلك اللحظات تستيقظ في لهاثه الذي حافظ فراغ الغرفة على سره.

استيقظ حامد فجأة وتراتيل الشيخ التي يحملها السكون من بعيد تملأ سمعه. وجعل يستعيد تلك الإيقاعات الساحرة منذ أيام الطفولة وهي ما تزال تتواصل كألحان سماوية تجول في الفضاء الواسع فتكون مرهماً يداوي جراحه ساعة تصيبه الحمى فيشفى منها وهو يستمع إلى الأدعية المبهمة تدخل إلى روحه السكينة. وفي ذلك الفجر انتقلت تراتيل الأب إلى جسد الابن فيستسلم لها بطاعة المخلوق للخالق، فجعل يردد في سره سورة (الضحى) ويعاود قراءتها بشفتيه، إلى أن هدأ كل شيء فيه.

وانبلج الصبح عن نور شفيف حملت بهجته إلى حامد صور رفاقه. إنهم يلهثون أيضاً في قراءة أوراق المقررات ويسعون إلى حل المعادلات الرياضية وفك رموز الكيمياء وحفظ قوانين الفيزياء، وهو مع البقية قد دخل

في سباق لا يرحم، والكل يسعى إلى التفوق الذي شكل الرابط القوي فيما بينهم. وكأن المنافسة هي التي دفعته إلى أن يضرب برأسه على سطح المكتب كي يستعيد قدرته على متابعة الاستعداد ليوم الامتحان العظيم.

ثم حضرت أشعة الشمس الأولى بفضولها اليومي لتتفقد أرجاء العليَّة، وكان حامد يبدو كصوفي سجن نفسه في الحجر السماوي، ولحظة استقبل الشمس تمطى وهو ينفض عن جسده سهر الليل بغية الدخول في مرحلة النهار. وكأنما بوادر الأشعة الدافئة ترافقت مع سماعه للنقرات الخفيفة على الباب. وكما يحدث يومياً أطلت (فاطمة) وهي تحمل بين ذراعيها طبق القش لتقديم الإفطار إلى حامد. فاطمة ابنة السابعة من عمر الطفولة المتفتحة عن براءة وهي تلف رأسها بوشاح أبيض كطفلة التقوى الذي يشرق في الوجه الأشبه بضوء الفجر. فاطمة كعادتها لا تخرج عن الصمت الذي بات من أبرز صفاتها وهي تصغي إلى تعليق حامد على محتويات الطبق.

«فهمنا، فها هو الزيتون والجبنة، وهاهو الزيت والزعتر والخبز الساخن، وذلك إبريق الشاي. ألم تخترعي يا فاطمة بعد إفطاراً آخر»

ومع دعابة أحمد تطرق الصغيرة برأسها، ويدفعها الخجل إلى الخروج هاربة تكاد تتعثر بأطراف الثوب الذي يغطي كعبيها.

كانت الصبية هي الرابعة بين من يقيم في الدار فكانت الأخيرة بعد حامد وأبيه الشيخ والعمة الأرملة، وكانت الأخوات الثلاث لحامد قد غادرن إلى بيوت الزوجية، وهكذا أصبحت فاطمة على صغر سنها المدبرة الثانية لأحوال الدار، ولم تكن تعامل كغريبة عنها بعد أن تركتها أمها أمانة عند الشيخ عصفور بعد أن رفض زوجها الجديد رعاية الصغيرة فأسرته

الكبيرة كانت تكفيه في بلاد الغربة التي يعمل فيها. وكانت أم فاطمة قبل رحيل زوجها الأول من مريدات الشيخ المخلصات فرَدَّ لها إخلاصها باحتضانه لفاطمة وضمها إلى أسرته يرعاها كواحدة منها. وبالرغم من أن فاطمة عوملت كابنة إلا أن الحدود التي رسمت لها كي لا تتجاوزها أبقتها ملتزمة برد الرعاية لها في تحويل الخدمة على قدر استطاعتها باستمتاع بأي عمل، فكان احترام الآخرين لها ومحبتهم عاملاً يدفعها إلى أداء الواجب كمسؤولة فعالة عن البيت الذي كفلها بحنان كبير. كانت فاطمة في الخامسة عندما هجرتها أمها ومع ذلك لم يؤرقها الغياب أكثر من شهور قليلة وجدت نفسها بعدها تنادي الشيخ بعمي وابنه بابن عمي والعمة بعمتي. إن الأسرة الجديدة حلت مكان الأم والأب، فابتدأت ذكريات الطفولة الأولى بالغياب عن تفكيرها، وتحول نسبها الجديد على غاية وجودها ومنتهى أحلامها. ويوم دفع الشيخ بواحد من أعوانه لتلقين فاطمة كي تحفظ سوراً من القرآن الكريم، أقبلت آنذاك على تعلم القراءة والكتابة بنهم وكأنها تطمح إلى أن تكون متساوية مع رجال العائلة، وكانت تستغل غياب حامد لتقلب في كتبه وكراريسه تريد أن تشاركه جانباً من حياته فيتعزز إعجابها به ولتنظر إليه دوماً كمثل أعلى، إلا أنها لم تنس لحظة دور الشيخ عصفور في حياتها فما عاد ذلك العم بل شيئاً أكثر من الأب، وطالما أحست بوجوده الدائم أمامها على قلته في الدار ليصبح ضرورة كالطمأنينة تسكن الروح وتحمي وجودها كالعباءة.

وفي ذلك الصباح أيقظت فاطمة في حامد ذكرى أخواته الثلاث قبل مغادرتهن النهائية للدار إلى كنف الأزواج، فقد كن لا يقدمن له رعاية كالتي قدمتها تلك الوافدة الصغيرة، فهل كان السبب في أنه ابن الزوجة الثانية للشيخ

أم كان انشغالهن بنضوج مبكر يدفع إلى التفكير المستمر في الزوج. وكان حامد قد ألِف مراقبة الصبايا في التكتم على أسرار تفوح منها رائحة الإعجاب بالرجال دون أن يفهم معنى لها. ولطالما تساءل عن سبب امتناع الشيخ عن الزواج من جديد بعد رحيل أمه المبكر، وكان كثيراً ما يقول لنفسه في الطفولة المبكرة:

«أي من البنات هي أمي»

وكان قد سمع الشيخ مرة واحدة هي السبب في ذلك التساؤل:

«عندك يا حامد ثلاث أمهات»

ومع ذلك لم يجد في واحدة منهن تلك الأم التي يريد، فقد كانت الأخوات كثيرات التأفف من شطط ذلك الولد الدخيل على مجتمعهن الأنثوي ومن تطلباته التي تكرر وصفها بالدلال. وقد أكمل من عزلته انشغال الشيخ المستمر في مسجده ونشاطاته الدينية والاجتماعية الواسعة، فلعبت تلك العزلة دورها في دفعه إلى طلب التفوق في دراسته. وعندما أحاطته فاطمة في سنته الأخيرة بعناية لم يعرفها من قبل تأكد له أن الله قد عوّض عليه بأخت لا مثيل لرعايتها، فقد أصبحت المسؤولة عن إحضار الطعام إليه في مواعيده وكانت المسؤولة الشخصية عن ترتيب غرفته وحوائجه والاهتمام بطي ملابسه بعد غسلها وكيّها وتلميع أحذيته، فكأنها الحارس الأمين الذي لا تغفل له عين عن تأمين الراحة له، لذا فهو لن ينسى تزويدها بالسكاكر المطعمة بالسمسم وقد أُغرمت بها فلم تنقطع لحظة عن إظهار الامتنان لهذا التكريم، وكثيراً ما كانت تحتفظ بقطعة من تلك السكاكر لتتأملها بإعجاب في غرفتها وحيدة.

- ٥ -

كان صيفاً حاراً، ولكنه بات استثنائياً باشتداد لهيبه خلال أسبوع الامتحانات، ثم تحول إلى قلق في الأيام التي سبقت إعلان النتائج. ويوم أعلنت أجهزة الراديو المنتشرة في المنازل والمقاهي أسماء الناجحين لم يكن لجحيم الحر دور في غليان الفرح الذي رافق ظهور أسماء الرفاق السبعة في القوائم المعلنة. وما هي دقائق إلا واجتمع السعداء على عناق ورقص وتهليل لم تشهد المظاهرات نفسها مثيلاً لذاك التجمع. واحتوت ساحة المستودع على مشهد من الهرج لم تعرفه من قبل.

هل طويت اليوم صفحات المدرسة الثانوية ؟

أيمكن لإثنين السينما ألا يتكرر بعد الآن ؟

أسئلة تداخلت مع تبادل التهاني بين الرفاق، إلا أن السؤال الذي انغلقت عليه دوافع الشباب كان كما يلي:

«هل انتهت رحلة الوجد إلى فضيلة؟»

وكان يعبر عن الأسرار الدفينة في التساؤل:

«ألن تكون الفرصة متاحة لمراقبة قوام الصبية وهو يتماوج مع مشيتها. وهل أصبح التاريخ الذي خلَّف في الروح سحراً، وراء الزمن؟»

وفي تجمع آخر للرفاق تناقلوا الخيارات التي سيتجه كل منهم إليها، فكان فرصة للتداول والمكاشفة حول المستقبل. أعلن (حامد) ومعه (هايل) عن النية في دراسة الطب في جامعة دمشق وقالا بتباهٍ إنهما يحققان شرط العلامات للقبول مما يتناسب مع الرغبة الأصلية لهمـــا. هتف (رشيد) أنه قرر الالتحاق بكلية الهندسة في حلب وهذا يعني أنه لن يشكل أي عبء على والده، وأدهش (تركي) الآخرين بإعلانه عن تقديم الطلب إلى الكلية العسكرية

وبهذا سيكون مؤهلاً بعد سنتين للاعتماد على نفسه فالزمن لا يستحق أن يهدره الإنسان بلا معنى، وبشّرهم (أحمد) بأنه سيراسل الجميع من روما بلد الفنون ووعدهم ضاحكاً بأن الرسائل ستكون باللغة العربية، وقال (سليم) إن الدراسة في كلية الحقوق لن تلزمه بالإقامة الدائمة في العاصمة مما سيتيح له الفرصة في العمل والبدء في توفير المال، وجعل (مجاهد) يحدثهم عن موافقة والده على دخول الجامعة الأميركية ببيروت وهو يفكر أن يسايره في دراسة العلوم السياسية ليكون ذات يوم سفيراً لبلاده أو ربما يصبح وزيراً، وهو بالرغم من مهادنته لأفكار الوالد الطموحة إلا أنه يعتقد أن ذهابه إلى تلك الجامعة سيمنحه فرصة العمر في تحقيق مشاريعه التي يحتفظ بها لنفسه.

وتطورت جلسة المستودع إلى استعراض لأهم ذكريات المدرسة التي باتت في تلك اللحظات تاريخاً تجاوزه الجميع. وظلت (فضيلة) كالعادة بعيدة عن استحضار أي من الأحداث التي شهدت أيامها الأخيرة تحول الرفاق من فتيان إلى مشاريع رجال يرسمون المستقبل بوعي وتصميم. ولم تغب عن تلك الجلسة أحاديث متفرقة عن الأساتذة الذين خلفوا في الذاكرة آثار حفرت في النفوس علامات لا تنسى، وكذلك أشاروا إلى إدارة المدرسة التي حملوا الحب لها بالرغم من تشددها في الحفاظ على النظام ورعاية النشاطات المختلفة من رياضة وجولات كشفية وحفلات سمر، مما لعب معظمها دوراً في تعلّقهم بالمدرسة بما يفوق أي مكان آخر. وهكذا كانت الأيام التي انقضت في جد ولعب وعواطف متأججة وهيجان سياسي حول الثانوية إلى المركز الأهم في المدينة، كما أن تلك الأيام منحت خصوبة للصداقة بين الرفاق فباتوا أشبه بحزمة من العيدان كانت قد لفتت الأنظار إليها في تماسكها وتآخيها وفي انتظام انتقالها من سنة دراسية إلى أخرى كفرقة تنشد أغنية المحبة وتسعى إلى المعرفة بدأب ونشاط.

وتساءل مجاهد فجأة إن كان هذا المكان سيشهد اجتماعاً آخر في زمن قريب، وقال إنه بالرغم من قناعته بضرورة بناء مستقبله بمنأى عن ثروة العائلة، إلا أنه يتمنى أن يظل صدر المستودع واسعاً لهم في أي وقت يريدون. وكان حامد يهتف إن كان التاريخ يعيد نفسه فيطرق الباقون بخوف طارئ خيم عليهم.

«أيمكن لهذه اللقاءات أن تتكرر في المستقبل؟»

ثم ينفجر المرح العابث من جديد. مزاح وتوزيع ألقاب يرمي بها الواحد في وجه الآخر.

(هايل) الوقور كإمام مسجد في قرية نائية.

(حامد) الحيوي كصاحب مدينة ألعاب يدخلها الكبار قبل الصغار.

(سليم) القادر على توليد جمل غير مفيدة.

(رشيد) العبقري في تحويل أي شيء إلى التزام يكره عليه الآخرين.

(أحمد) الفنان الذي يحول الرجال إلى حيوانات منزلية أو مفترسة في لوحاته السرية.

(مجاهد) الثوري الذي يدخن سيجاراً صنع في كوبا.

(تركي) الهادئ كقط كسول.

ولم يبد أي من الرفاق ضيقاً بالوصف الذي ألصق به فيؤكد باستسلامه له مدى التضامن مع الأخوة العاطفية التي راهن عليها في سنوات الدراسة. ولم يكن لأحد أن يقدر أبعاد ذلك اللقاء الذي قد يكون الأخير من نوعه في مسيرة زمنهم الجميل.

- ٦ -

كانت فاطمة تسد بجسدها الناحل جانباً كبيراً من الفراغات بين أسياخ الحديد التي انتصبت أمام النافذة الصغيرة التي تعلو باب الدار، وظلت عيناها تراقبان بقلق متوتر وهي تردد بصوت مرتعش أدعية الرجاء من أجل عودة ابن عمها. وما إن أطل حامد من أول الحارة حتى هتفت الصغيرة بالشكر لله. وكان حامد قد لمح خيال الفتاة فابتسم، وظلت خطواته المتقدمة بتمهل تشغلها مراقبته للحجارة السود التي تماوجت سطوحها بفعل الزمن وهي تغطي أرض الحارة لمئات السنين. ولابد أنه في تلك اللحظات يتساءل من جديد إن كان قد كتب عليه أن يعيش دوماً في هذا الجزء المتآكل من المدينة القديمة، وإن كانت مرحلته الجديدة في دخول الجامعة ستؤهله لأن ينتقل مستقبلاً إلى الجزء الحديث من حلب.

وعندما تطلع من جديد إلى النافذة العالية التي كانت كبرج مراقبة ترصد منه حركة الغادين والرائحين، اكتشف غياب فاطمة، وإذا ما طرق الباب كعادته قبل أن يستخدم المفتاح النحاسي الذي يحمله كما يحمل الجندي سلاحه، ظهرت فاطمة من جديد عند فرجة الباب وهي تتمتم بكلمات مضطربة فهم منها دعوة للإسراع بالدخول. اندفع متخطياً العتبة وقد ابتدأ إحساس عنده بأن ثمة أمراً له شأن يدور في الدار. لفت نظره حشد النسوة في الصالة الأرضية وقد اختفت وجوههن خلف المناديل السود، ومر بالنسوة مسرعاً يلاحق فاطمة التي سبقته وهي تقطع درجات السلم بخفة طائر وكأنها تريد أن تصل بحامد إلى الطابق العلوي بأقصر مدة، ووجد حامد في نهاية المطاف أنه يتجاوز الصغيرة ويدخل غرفة نوم الشيخ بحذر حوّله إلى خائف حقيقي.

خيمت على فضاء المكان غلالة من عتمة فتتحول الغرفة إلى كهف في عمق الزمن. ودارت عينا حامد زائغتين في الغرفة لتحط على السرير

النحاسي العريض يحمل جسد الشيخ عصفور. وإذا ما اقترب الابن المذعور شاهد والده مسبل العينين وقد اختلط شحوب وجهه بالنور الضعيف الذي يخرج مختنقاً من الأباجورة التي تطل على السرير.

هتف حامد منادياً والده بصوت أضعفه الخوف، وكانت فاطمة تقف خلفه واجفة القلب لم يمنعها الذعر من متابعة مراقبتها لحامد في اقترابه الزاحف من الشيخ.

أمسك حامد بكف الشيخ واقترب بخده منها يتحسسها وكأنه يستغل استسلام الشيخ الكامل ليعبر له عن محبته، وكان يحاول الاقتراب من ضعف والده بتقبيل الكف بحرارة مذعورة كما لم يفعل مثل هذا منذ زمن طويل. وحاول حامد في التفاتته إلى فاطمة أن يسأل بعينيه عن وضع والده فقابلته بدموع تغسل وجهها، فعاد إلى المستلقي بضعف لينكب عليه يناديه برفق. وكأن عاطفة الابن تسللت إلى سمع الشيخ فدفعت عينيه إلى التفتح ببطء، آنذاك تلاقت الأبصار فانفرج وجه الشيخ عصفور عن ظلال ابتسامة حانية وجد فيها حامد ثغرة يحاول ان يبعد عنها الخوف الذي تفشى في زوايا روحه. تمتم الشيخ ببطء:

«حامد.. ابني الحبيب»

وكانت كلماته تعلن عن سعادة لحضور الابن في الوقت المطلوب، وفيما يضم حامد كف الوالد إلى صدره، كان يتساءل عن زيارة الطبيب، فسمع فاطمة تقول هامسة بصوت مخنوق:

«غادر الأطباء منذ قليل، وهم في المسجد يصلُّون»

وغاب الشيخ عن الرؤية لحظات خفق لها قلبُ حامد، إلا أنه عاد بإيماءة من عينيه كي يقترب ابنه منه، فمال حامد لتلتصق أذنه بفم الشيخ يهمس ببطء متقطع:

«دعوت.. الله.. أن أراك.. يا ولدي.. أريت أن أراك.. قبل أن أسلم الأمانة»

ثم تابع كأنه يستجمع كل قواه في القول:

«اسمعني جيداً يا حامد فليست أمامي فرصة لأتكلم كثيراً»

ثم أغمض الشيخ من جديد، إلا أن شفتي حامد وهما تلامسان الجبين أيقظتاه فجعل يهمس مستسلماً:

«جاءت الساعة. الله أعطى، الله يأخذ»

وبعد قليل جعل الشيخ يتمتم:

«تمنيت أن أراك طبيباً، لكن القدر أقوى»

وأكمل بعد لحظات وهو يلهث :

«أوصيك بالزاوية، فحافظ على المشيخة يا ولدي»

بعد فترة من صمت ألقى بثقله على حامد، هتف الشيخ بضعف كاد ألاّ يسمع:

«أوصيك بفاطمة. نحن ما بقي لها»

كانت عينا حامد تمتلئان بالدهشة التي لم تمنح فرصة لظهور الدموع فيها والتي أغرقت حنجرته. وكانت الأسئلة تغرقه :

«أهذا هو مصير رجل مثل الشيخ عصفور الجنة ؟»

«أهو الضعف البشري الذي يمكن له أن يلغي حضور رجل التف حوله آلاف الرجال والنساء وهم يستسلمون لصوته العميق يوقظ فيهم الإيمان والطاعة؟»

«أية نهاية لمسيرة عشرات السنين كان فيها الشيخ رمزاً لقوة ساحرة!»

وجعل حامد يهز برفق كتفي والده متوسلاً أن ينظر إليه، إلا أن الشيخ لم يملك من أمره سوى استسلام فكه الأسفل لارتخاء يفصح عن وضع حدٍّ لكلام لن يسمعه أحد منه بعد اليوم.

وأيقظت صرخة فاطمة المدوية فضاء الدار كإنذار لشؤم بدد الصمت المرتقب. وخرجت الصغيرة من الغرفة تتابع صراخها لينفجر عويل النسوة اللواتي كن بانتظار تلك اللحظة الحاسمة. تطايرت المناديل السود ممزقة فأصبحت قطعها غيوماً تتنزل من السماء معلنة عن حزن لم تشهده الدار من قبل. وبقي حامد جاثياً قرب السرير يحدق في وجه الشيخ وهو يأمل أن يسمع شيئاً منه وقد وضعه الحزن بين التفجع والتساؤل.

«ماذا فعلت بي يا والدي ؟»

ظل الابن المفجوع جامداً في انكبابه على الراحل لا يريد أن يفارقه إلى أن تدفقت جموع النسوة على الغرفة، فأدرك حامد أن العويل يؤكد أن الشيخ عصفور قد حلق بجناحيه بعيداً عن عالم الآخرين. ولم يلحظ الشاب أن الإنسان الوحيد الذي يبكي بصمت خلف ستارة النافذة المطلة على صحن المسجد هو الصغيرة فاطمة. وهب حامد فجأة يهتف واقفاً وسط جميع المتفجعات :

«لا إله إلا الله. هو الحي الباقي. وحّدوه بدلاً من البكاء»

فتوقفت النسوة عن الصراخ وتحول العويل إلى ترديد اسم الله الذي سيتحول بعد قليل إلى ترنيمة لا يشبهها سوى حلقات الذكر. وما عاد هناك بعد قليل سوى صمت يتداخل مع ذكر الله وكأنه النشيد الأخير الذي يجب على الراحل أن يسمعه في دخوله البرزخ الذي يفصل شاطئ الحياة عن عالم الموت. هتفت الابنة الكبرى وقد دفعها الحزن إلى انفراج أساريرها:

«ألا تتنشقون معي رائحة الجنة؟ الملائكة تطيِّب الشيخ بالمسك والعنبر»

- ٧ -

وكجيش متململ كان الموكب المتدفق من بوابة المسجد مروراً بالصحن يحمل النعش عدد من الرجال على الأكتاف، ويبدو أنهم كانوا أقرب المريدين إلى الميت وهم يحملونه فيرفعونه إلى أعلى تقرباً من السماء. وكانت أصوات الآلاف تعانق الفضاء بذكر الشيخ عصفور الجنة العائد بإذنه إلى دار البقاء التي منحته اسمها.

«عصفور الجنة حبيب الله»

«إلى جنة الخلد يا ابن الجنة»

وهكذا كانت الهتافات، وإذا ما انعطف الموكب متحولاً إلى الشارع العريض خيل لكثيرين من المشاهدين أن الجنازة قد خرجت من القلعة نفسها فغطى الموكب بساط الإسفلت الممتد أمام القلعة وكأن قاعة العرش التي تتوج المدخل تودع أيضاً الشيخ الجليل. وظهرت جماعة من الصوفية وهي تتقدم النعش وتحيط به، فارتفعت حناجرها بالتوحيد وجلجلت إيقاعات مزاهرها كفرقة عسكرية تودع قائدها في إعلان على الملأ أنها فقدت أعز الرجال.

وكانت الأعلام الخضر وهي ترفرف مع انتشار العمائم البيض على الرؤوس، قد أعطت الجنازة امتيازاً لم يشهده من قبل الطريق إلى مقبرة الصالحين. وانجذب أصحاب الدكاكين إلى الموكب بعد أن تبين لهم أن من التبرك مشاركة فعلية في تشييع الشيخ الصالح عصفور الجنة الذي خلف عندهم روايات من كرامات وأحداث لا ينفك أهل الأحياء الممتدة إلى المقبرة يتذكرونها.

حامد يمشي خلف النعش وهو يسبِّح (بالألفية) التي كانت لوالده الشيخ، ورأسه مجلل بغطاء حريري أبيض ينسدل على الجلباب الذي يظهر فيه خارج الدار والمسجد لأول مرة. حبات الألفية الخشبية تطقطـــق على إيقاع خطواته وهو يدب مطرق الرأس وتحيط به مجموعة من الرجال الملتحين

كجوقة تعلن عن استعدادها للتخفيف عنه. وكان حامد الحليق مطوقاً بالأتباع الذين يقدمون الطاعة إلى الشيخ الراحل عبر الالتفاف بابنه الوحيد.

وظهرت (الصالحين) للعيون عن قرب كحديقة أحجار نمت فيها الشواهد التي تعتّق معظمها بالغبار والطحالب، وكان الدفن في تلك المقبرة بمثابة التقرب من تاريخ المدينة العريق. كانت (الصالحين) هي المفضلة عند رجال الدين وتجار الأسواق والشهداء الذين سقطوا أيام الحكم العثماني أو الانتداب الفرنسي، وهي أيضاً هدف لأموات العائلات ذات السلطة أو المال أوالقِدم في المدينة أو بعض الولاة الذين حكموا وكبار العسكر وممن حالفه الحظ من عامة الشعب.

عند المدخل الغربي الوحيد للمقبرة توقف النعش تحت المظلة استعداداً لرصّ الصفوف وتجمع المشيعين الذين تسابقوا إلى حمل التابوت بالتبادل فيما بينهم سعياً إلى نيل البركة، وإذا ما اكتظ المدخل بالناس، تحرك الموكب.

كان القبر قد أُعد مسبقاً لاستقبال الجثمان. وعنده التف الرجال حوله بينما جلس القرفصاء عند رأس القبر شيخ أعمى جعل يتلو سورة البقرة مع نشاط رجال تعاونوا على إنزال الشيخ ليوسد جسده الأرض التي بدت مع جدران الحفرة كغرفة حديثة أضاءها الكلس بنور أشرقت له وجوه المشيعين.

وابتدأ الجمع في التلاوة بصوت متدرج ما لبث أن أصبح عالياً وقد انتشر أفراده مقرفصين في حلقات توسعت لتغطي مساحة كبيرة من المقبرة. كانت آيات السورة مع اقترابها من النهاية تمهد الجو للخطيب الذي انتصب واقفاً مسمياً بالله بعد انتهاء الجموع من قراءة الفاتحة.

وأخفى الصوت القوي للرجل الذي يستعد كي يكون خطيب الجنازة، أخفى عمره الستيني ليظهر كقائد حازم لفرقة استسلمت لتعاليمه، وجعل يدعو الناس لذكر الله ثلاث مرات قبل أن يبسمل من جديد ويبدأ في تعداد مناقب الشيخ عصفور

واستعراض أفضاله على الذين نهلوا من تقواه، وعلى وجود المدينة نفسها التي باركها الفقيد الراحل لمجرد أنه نشأ فيها ونشرت كلماته العطر في فضائها.

كان الخطيب قريباً من الشيخ عصفور، وهو الذي قاد الأذكار في المسجد لسنوات طويلة، ولم يغب يوماً عن درس الجمعة أو ليالي التعبد في مناسبات عديدة في الأشهر الحرم. كان واحداً من الموثوقين عند الشيخ الراحل للتواصل مع تجار المدينة وصناعييها وكبار المزارعين فيها. وقال الخطيب في معرض استحضاره لبعض من كرامات الشيخ عصفور كاستدرار المطر بعد صلاة الاستسقاء ومنع فيضان نهر قويق من إحداث المزيد من أضراره، وهو الذي أدخل الطمأنينة والرضى إلى قلوب اتباعه إذا ما لحق بهم فقر أو تعسف أيام الفرنسيين، فكان يداوي جراحهم ويأخذ بيد المحتاجين والمرضى، وفي أن الله قد خصَّه بابن قُدَّ من صلبه فسقاه الإيمان والعلم ليكون عوناً له في متابعة رسالته بعد غيابه.

وتعالت الحناجر بالتهليل بينما ينكب الخطيب على يد حامد يقبلها ويهتف بحماسة تليق بالأفراح وكأنه يدعو الآخرين إلى دعم ندائه:

«إني أبايع الشيخ حامدِ. من يؤمن بالشيخ عصفور حبيب الله فهو سيبايع معي الشيخ حامد، ومن يؤمن بضرورة استمرار المشيخة في النسل الطاهر فليبايع معي الشيخ حامد» وارتفعت الأصوات بالبيعة التي لم تكن في حسبان أحد. وتسارع شيوخ وشباب إلى طبع القبلات على يد الشيخ حامد الذي لم يتخلص بعد من وقع المفاجأة فسلمته الحيرة إلى صمت متماسك. وعندما انتظم الصف الطويل في الممر الترابي الذي يشق المقبرة إلى طرفين، اقتاد الخطيب شيخه الجديد ليكون على رأس الصف متلقياً العزاء والطاعة.

في البداية كان حامد مستمراً في حيرته، إلا أنه مع تعاقب المشيعين عليه ابتدأ في الاستجابة إلى الشفاه التي تلمس كفه من الوجهين فلا يحاول أن يردها إلى جنبه. ومع مرور الوقت كانت كفه مشرعة وهي تستقبل الطاعة لتتحرك شفتاه بالبركة يمنحها بآلية لم تنقطع.

وفي صحن المسجد مساء ذلك اليوم وما تلاه من أيام العزاء الأخرى، تصدر الشيخ حامد المكان مصغياً بوقار إلى تلاوات القرآن أو الكلمات المؤبنة والأشعار متعاقباً عليها عدد كبير من المعزين. كان يصغي باهتمام إلى إعلان الخطباء عن الرضى بالهبة التي خلفها لهم الشيخ عصفور الجنة فكانت في الابن الصالح الذي سيمضي بإذن الله في نشر التقوى والإيمان ودعوة التائهين إلى الاحتماء بالمظلة الربانية التي يليق بالشيخ حامد أن يحملها.

وفي اليوم الرابع، وكان الجمعة، وجد حامد نفسه مزروعاً على المنبر خطيباً، فكان في الخطبة ملتزماً بكلمات والده وأفكاره التي حفظ الكثير منها. ثم وقف إماماً يقود صفوف المصلين وكأن روح الشيخ عصفور قد ملأت نفسه بقوة سحرية.

ومنذ تلك الأيام بدت فاطمة في خدمتها له وكأنها تفعل ذلك إكراماً لرجلين، هو والشيخ الراحل. كذلك أخواته وأولادهن وعمته والأقارب باتوا في التعامل مع حامد وكأن الشيخ عصفور حلَّ فيه. وعندما ظهرت لحامد أوراق الملكية لدور ودكاكين وأراض زراعية في منطقة (الجزيرة)، علم أن الميراث الذي له فيه نصيب أكبر سيضمن له الاستقرار. وإذا ما تفكر في كلية الطب التي كان عليه أن يلتحق بها، ظهرت عليه وصية الوالد في وجوب الحفاظ على المشيخة التي وجد نفسه في قلبها، فقرر ألا يخالف أمنية الشيخ عصفور في أن يكون البديل.

وحصل الأتباع من إدارة الأوقاف على إمامة المسجد له. وكان وهو ينقب في رفوف المكتبة الصغيرة في الزاوية التي اعتاد الشيخ عصفور على استقبال الناس فيها، قد وجد مجموعة من الكتب، (إحياء علوم الدين) للغزالي و (دلائل الخيرات)وكراريس ضمت بعض أوراقها أدعية وأشعاراً دينية، فكانت تلك المطبوعات تشكل مرجعية له بعد أن كانت للشيخ عصفور. وعندما قلَّب صفحات كتاب (ابن سيرين) لتفسير المنامات فهم سر والده في اجتماع الناس عليه يحدثهم في كل شيء ويغوص معهم في أعماقهم كشريك حقيقي.

الزمن يمشي على هواه

-١-

قالت السيدة أم فضيلة:

«انظر حولك يا رجل، انظر و سترى أن شوارع حلب تغلي ببهجة الإعلان عن قيام الوحدة مع مصر. حتى الدول تتزوج. انظر حولك ستعرف أن الفرح لا يزور دارنا مع كل ما يحدث في البلد» وخاطبت نفسها بنغمة صارخة:

«أهي اللعنة حلت علينا، أم حسد الناس يحاصرنا؟ حبيبتي فضيلة تقترب من العشرين من عمـــرها ولم يحدث أن طرق الباب خاطب يليـــق بحسنها. ومن شر حاسد إذا حسد»

وكانت أم فضيلة تعلن بصوت خفيض عن أفكارها وتتذمر، إلا أن شتائمها مع ذلك وصلت إلى كل زاوية في الدار، فالحظ العاثر أصابهم دون شك فلم ينجذب إليهم حتى الآن سوى مجموعة من الشباب الذين يلاحقهم الدخل المحدود باللعنة.

وكانت فضيلة قد توقفت عن متابعة دراستها بالرغم من وصولها إلى عام البكالوريا، وتحول اهتمامها بالكتب السقيمة، كما شاء لها أن تصفها، إلى الاستمتاع بإطراء الأهل والجيران لجمالها وأنوثتها الطاغية التي تتأكد من ندرتها بين النساء يوماً فيوماً. بات وقتها يدور حول الاهتمام بنفسها بانتظار

الزوج المناسب، وكان والدها في جلسات المساء مع الزوجة يكرر ويعيد أن اليوم الذي سيدل ذلك الزوج على ابنته لابد قادم، ويقسم بكل الأولياء أنه قادم يحمل لجوهرتهم فضيلة مستقبلاً يليق بجمالها، وهو لا يشك في أن ابنته تستحق رجلاً من أغنى الرجال في المدن وفي العالم. ومع أن عدداً من الخُطَّاب في السنوات الأخيرة طرق الباب طالباً القرب، لكن الرفض كان هو الجواب دوماً لأن أياً منهم لم يحقق الشعار الذي رفع في البيت منذ البداية.

«لا لأصحاب الدخل المحدود ولا لموظفي الدولة، اللهم إلا إذا كان مسؤولاً كبيراً أو قيماً على مصلحة تأتي له بالمال»

وكثيراً ما كان الأب يصرح بقوله:

« نعم للتجار والصناعيين. نعم لمُلاَّك الأراضي والعقارات. نعم لأمير يليق بالأميرة، وليبعد الله الذباب عن الحلوى»

لم يتوقف الوالد عن تقليب دفتر المدينة بلا كلل باحثاً ومستقصياً، فكان احتكاكه المستمر بالسوق ومتابعة أحوال البنوك والأنساب العائلية بحثاً عن الزوج المختبئ في طيات الكتاب الحلبي، ويأمل من الله دوماً أن يهديه إلى الهدف. كان الأب يعمل على التنقيب دوماً في احتمالات العثور على الزوج المطلوب، ولم يتوقف أصدقاء فتح لهم قلبه ووضع حلمه بين أيديهم، عن المساندة. كان هناك إمام الجامع الكبير وتاجر العملة في خان الوزير وكبير السماسرة في خان الجمرك، وكان هناك الرقيب في الجنائية الذي يقيم باستمرار في سوق الصاغة وغيرهم، يشكلون الحلقة المحيطة بالأب تساعده في البحث عن الزوج للصبية. وكثيراً ما طرحت أسماء مرشحة فلم يكن واحد منها صالحاً للاختيار إما لتعدد زوجاته أو للترمل في سن متأخرة أو لشائعة قوية حول وضعه المالي المهتز، ومع ذلك لم تنفك الحلقة عن متابعة البحث والتنقيب.

ولابد أن منشورات عربية وأجنبية لها علاقة بالأزياء قد لعبت دوراً في حياة فضيلة وهي تتابع اقتناءها بانتظام. وساعدت تلك المنشورات الملونة في متابعة الصبية لآخر أنواع الموضة في الملابس وقصات الشعر وأصباغه وتزيين الأظافر، فلم تتوقف يوماً عن تقليد ما تقع عليه عيناها من صور الممثلات المشهورات وعارضات الأزياء، وسعت إلى استعراض جسدها بالملابس الداخلية المزركشة، فكانت المرآة في غرفتها شاهداً على التحولات المتعاقبة في شعرها ومكياجها وكل ما يتعلق بإبراز مفاتنها. وظلت الأم القريبة الوحيدة من الصبية تتابع ما يجري من تحسين على ابنتها فتعلم أن يوم قطاف الثمرة قريب.

وفي يوم الاستقبال الأسبوعي، لم تتورع أم فضيلة في لقائها مع ضيوفها النسوة عن دفع ابنتها إلى محور الاهتمام الذي تجتمع حوله العيون وتلاحقه الآذان. وتميزت أسابيع السنة الأخيرة بعرض لابد من أن تقدم فيه فضيلة شيئاً جديداً في عالم الزينة والأزياء يرافقه رقص الصبية وغنجها. كانت صالة الدار تعج بالنسوة من كل الأعمار، وتتحول الخميسية (نسبة إلى يوم الخميس) إلى ما يشبه حمام السوق فتتداخل الضجة الصاخبة بالغناء والرقص بالحكايات والتعليقات الجنسية تبدأ بها أكثر من امرأة بسرية لتصبح شائعة بين الجميع مما يفسر سبب اختفاء الرجال عن تلك السهرات. وكانت فضيلة في عصر ذلك اليوم قد تألقت كنجمة اللقاء والعيون تلاحق الغنج الذي تقوم به وجسدها يشع بأنوثة مثيرة متمايلاً كراقصة في معبد وثني، ولم تفصح واحدة، من اللواتي يأكلهن الحسد من متزوجات شابات أو أمهات يعددن بناتهن للزواج، عن إظهار الغيرة، كما تشتعل الرغبة عند نسوة عرفن بعلاقات جسدية مع أخريات فيحاولن التستر على الشهوة بامتلاك الصبية وهي تتمايل على إيقاع العود ترافقه الأغاني المتداولة وهي تهز بردفيها ليرتج ثدياها مع الآهات المرافقة للإيقاعات الساخنة. وكانت فضيلة ترغب من الجمع دوماً أن يعبر بطريقة ما

عن الإعجاب بالسحر الذي تشع به، كأنما العيون التي تلعقها تحقق لها الأمنية في التلذذ بنفسها والاستمتاع بشبق عيون جائعة.

ولم تكن ساعات الزينة أمام المرآة أو فترات الرقص أمام العيون الجائعة لتمنع هجوم لحظات الكآبة التي تجتاحها في الليالي الطويلة وهي تتقلب في الفراش وحيدة تؤرقها نقمتها على الرجال الذين لم ينتبهوا إلى وجود الأميرة الحلبية التي يصعب على أرحام النساء إنجاب مثلها. ولطالما لعنت في سرها هذا الزمن الظالم والعيون التي لا ترى جمالها أو تقدر ما هي عليه من أنوثة. وتستعرض ذاكرتها جيوش العيون تحوم حولها كالقطط الجائعة ورياح الرغبات المكبوتة تلاحق مشيتها. هي لا تنسى طلاب الثانوية الأولى وأساتذتها وتستحضر أصحاب الدكاكين والمكاتب في المنطقة ما بين مدرستها والبيت، فتصرخ غاضبة في شبكة العنكبوت المظلمة التي تحيط بها:

«أي بلد هذه ليس فيها زوج يليق بك يا فضيلة!»

تستعرض أحياناً وجوه أولئك الفتية من طلاب الثانوية وقد ضاعت ملامحها الآن. كان الواحد منهم يلاحقها عن بعد، إلا أن أحداً لم يجرؤ على أن يعترض طريقها أو يقف وجهاً لوجه أمامها فيفضح نفسه. وهي تتذكر تلك الرسائل المذيلة بحرف من الاسم أو بصفة له كالمتيم أو العاشق المجهول أو المحب المعذب، وكانت عادة تلتقط الرسالة المرمية في مدخل العمارة لتقرأها بتعالٍ لا تلبث أن تمزقها. وقد استوت ذات ليلة في الفراش لتسأل نفسها عن مصير أولئك الطلاب بعد غيابهم المفاجئ، وقالت لنفسها إنهم لابد في الجامعة الآن،ولابد أنهم يستعدون ليكونوا من أصحاب مهن محترمة كالطب أو الهندسة، ثم انتفضت في مكانها لفكرة راودتها وهي تقلبها على وجوهها المختلفة:

«أيكون أحدهم ابناً لعائلة غنية فيعود من دراسة في جامعة غربية رجلاً يشار إليه في المدينة، أو يكون وارثاً لواحدة من ثروات المدينة ؟»

وقالت بحزن داهمها:

«هل أضعت الفرصة يا فضيلة ؟»

ثم إنها تهتف قبل أن تستسلم لمخدتها:

«وهل يمكن لي أن أضيع حياتي في انتظار شاب مازال في أول الطريق؟»

ويشهد يوم شتائي سراً يهمس به الوالد في أذن الأم التي سيتفتح الفرح في وجهها وجسدها الممتلئ. فكادت أن تعلن عنه بزغرودة لولا مسارعة الزوج إلى منعها من إبداء أية إشارة يعلم بها أحد. وتساءلت أم فضيلة بصوت خفيض والمفاجأة تسري كالكهرباء فيها:

« أتقسم على صدق صاحبك ؟ أهو حقاً جدي في قوله ؟»

كان الرقيب أول في الأمن الجنائي قد أعلم سامي أبو خشبة بأن الزوج المطلوب قادم، وقال إن في قدومه البشارة المنتظرة، ولن يمر يوم إلا ويحضر (علي دشان) بنفسه يطلب القرب. وعلق الرقيب بخبث بأن العريس هو الوزّة التي تبيض ذهباً فليكن استقباله في الدار لائقاً بقيمته. وصدقت البشارة لتدخل الدار في مرحلة جديدة من تاريخها الذي أمضّه الانتظار.

ورافق حضور علي دشان إلى الدار تعريفاً بَذَلَ الرقيب جهداً في انتقاء كلماته. رجل الأعمال الكبير في بلاد الحرم الشريف، وقد خرج في البداية من قرية قرب حلب ليبني مجده في السعودية، واستطاع أن يمتد بمقاولات البناء إلى أهم المناطق في المملكة. علي دشان لم يتجاوز الأربعينيات من العمر شغلته الأعمال عن الخروج من عزوبيته، وهو الآن يعود إلى وطنه ليختار الزوجة المناسبة فيعود بها لتشاركه الحياة هناك. وعلق الوسيط الذي يرافق الخاطب بأن التقرب من أسرة كريمة كهذه سيضفي على نجاحاته في الغربة نعمة إكمال دينه. وقال الدشان بوضوح رجل الأعمال إنه على استعداد لتلبية ما يطلب منه فالمهر والهدايا رهن بأصحاب الدار وبموافقة العروس

الشخصية، وكان بدهائه يستجر فضيلة للظهور كي يقوم بالمطابقة بينها وبين الصور التي عرضت عليه قبل المجيء خاطباً.

واتسعت عينا علي الدشان لحظة أطلت فضيلة، وكانت أبصاره الشاخصة إليها تؤكد له أن الأصل يتفوق على الصورة. دخلت فضيلة مطرقة برأسها لتصبح مفاجأة مشرقة ملأت عيون الرجال الثلاثة بالدهشة فوقفوا احتراماً بمن فيهم الأب نفسه. تقدمت الصبية خطوات محسوبة لتقف كعارضة أزياء محترفة وقد انسدلت عباءة سوداء على جسدها، رجراجة تتثنى مع مشيتها فوقوفها، تلامس فخذيها برفق مثير بينما هربت خصلات من شعرها الذهبي يخالطه البياض من تحت الوشاح الحريري الذي يجاهد في تغطية رأسها. بدت فضيلة كحورية في واحة صحراوية يغطي تفتحها على غياب أشجار النخيل المفترضة. هتف الدشان دون وعي:

«تبارك الله.. سبحان الله»

وجحظت عينا الرقيب الجنائي كمن لا يعرف الدهشة من قبل، بينما الأب يبتسم بمباركة خفية لإتقان ابنته دور الإغراء المتحجب وقد أتقنت التستر على الطريقة السعودية. وأفسح الدشان مكاناً على الأريكة لتأخذ العروس فرصة في الجلوس عليها، فاستجابت لدعوته بتردد مفتعل. وما إن انتقلت إلى الخاطب حرارة العروس بالرغم من مسافة تبعده عن جسدها وتقربه من روحها، هتف الدشان قائلاً :

«الآن جاء وقت قراءة الفاتحة»

فارتفعت الأكف مع تلاوة الفاتحة وقد انعقدت كلماتها المهموسة في فضاء الصالة كغيمة ندية ستمطر بهجة تملأ النفوس، بينما اكتفت فضيلة باستراق النظرات إلى الخطيب القادم والمؤهل ليكون الزوج المنتظر. وتحققت لحظات الانتصار التي سيختص كل فرد في الصالة بها لنفسه. إنه يؤمن أنه ينال النجاح.

وانضمت أم فضيلة إلى المجلس وقد بات شرعياً بعد تلاوة الفاتحة وقد أعلنت عن البداية الفعلية لمشروع الزواج. وبينما لمعت عينا الدشان مع اقترابه ببطء من فضيلة يتنشق عطرها بعمق وكأن جسدها يولد رائحة الزنبق كرذاذ ينعش انتشاره جوع رمل الصحراء الطويل، وكانت عينا الأم تفتش في تفاصيل الرجل وحركاته وإيقاع كلماته بحثاً عن مزيد من القناعة به، وجعلت فضيلة تعاود النظر إلى الخطيب الذي كان جسده أقرب إلى أسطوانة محكمة الاستدارة فتردد في سرها عند كل نظرة أن الكنز الذي يحمله هذا الرجل لابد قد خصص لرعاية جمالك، وسبحت عيون الوالد في بحيرة الطمأنينة التي أرّقه انتظارها الطويل ولا تتوقف عن التماع الفرح فيها مع استعراض الدشان لأعماله الواسعة في السعودية في خطة لتقديم أوراق اعتماده كزوج لا يُقاوَم،ولم يستطع الوسيط إخفاء ابتسامته وقد بات على يقين من المكافأة المجزية التي تنتظره من الطرفين على حد سواء، و ردد بداخله:

«وأخيراً جاءت صفقة العمر»

وفوجئت فضيلة مع والديها بالخميس القادم بعد أيام معدودات موعداً حدده الدشان لعقد القران، فخرجت عن خجلها الذي اختبأت وراءه طوال الاجتماع وهتفت بنزق ظهر في احمرار وجهها :

«شهور لا تكفي لإعداد الجهاز»

وعلقت الأم غاضبة:

«لاتنسَ أن فضيلة هي التي تتزوج، وابنتي ليست أي عروس»

وترك الدشان فترة تمر على الانفعال الذي اشتعل في المكان ليقول بعد قليل:

«القصر في مدينة الدمام جاهز، وسيكون تحت تصرف العروس لتغير فيه كما تشاء»

وأضاف وهو يراقب ذكر (القصر) على الآخرين :

«أسواق بيروت حافلة بكل ما تشتهي الست فضيلة. الأسواق تفتح صدرها بلا حساب»

وقال بصوت عميق يريد به أن يدخل الأعماق:

«وأما الذهب والألماس وكل الجواهر ستكون بتصرف العروس.صاغة حلب بانتظارها»

وغطى رنين الكلمات على المشاعر التي كانت تغلي فاستسلمت. لبثت فضيلة ساكنة كغصن شجرة مثقل بالثمار وهي تفكر:

« قصر جاهز، أسواق بيروت المنفتحة على آخر الأزياء في العالم، صاغة حلب رهن الإشارة. عجباً فالرجل هو الزوج المناسب!»

ومع الرضى الذي أحست به فضيلة، قالت:

«لم نذكر بعد حفل الزفاف. يجب ألا ننسى حفل الزفاف»

وفي السر كانت تردد:

«أريد للحفل أن يغيظ كل نساء المدينة»

وانبرى الأب متسائلاً عن مكان الحفل، فقالت الأم باندفاع فطري:

«قهوة البرتقان»

فلكزها الأب في جنبها معاتباً وهو يقول:

«أم فضيلة تحب المزاح. قهوة البرتقان لعامة الشعب»

وأضاف مقرراً بقوله:

«غداً نحدد مكان الزفاف. يجب أن يكون لائقاً بالعروسين»

وانبرى الرقيب فرحاً باكتشافه الذي جعل يتحدث عنه:

« ليس أمامكم سوى القاعة الشتوية لنادي حلب»

فتعلقت الأبصار بالوسيط وكأن أصحابها يناقشون الاقتراح بصمت. لا يرتاد النادي سوى الخاصة من المشتركين لذا فالاقتراح مقبول من حيث المبدأ، إلا أن الدشان فاجأ الآخرين بضرورة التريث في اتخاذ قرار، فهو ملتزم أصلاً بالعودة السريعة، وهو يقترح :

«أُفضّل أن يذهب مال الحفلة إلى أمر أكثر نفعاً للست فضيلة»

وأجاب الدشان بسرعة عن تساؤل العيون:

«لتذهب نفقات تلك الحفلة إلى شراء أفضل دار تسجل باسم العروس»

فجاء اقتراحه برداً على غليان النفوس. وجعل أهل العروس يتبادلون نظرات التأييد. وهبَّ الرقيب الجنائي واقفاً وهو يعلن عن تكليف نفسه منذ هذه اللحظة بالبحث عن الدار اللائقـــة، إلا أن خطابه لم يمنع حاجبي فضيلة من إظهار التأفف الخفي، وجعلت تتمتم:

«لست امرأة تتزوج في الخفاء»

فكادت كلماتها أن توقظ الفتنة من جديد فتحفز وجه الأب بالغضب، لكن الأب سرعان ما انتقل من مكانه ليحتل موقعه بين العروسين وهو يقول أن العقارات المقامـــة في منطقة (المحافظة) تليق بفضيلة، وأن داراً فيها ستكون مناسبة للزوجين عندما يزوران حلب أو يستقران فيها، وقال الدشان بهدوء مستسلم:

«هذا أمر يعود إليكم يا عمي، ولن أعترض على شراء أي دار بأي ثمن»

فساد المجلس الهدوء الذي أخفى احتمال أية ملاحظة تختبئ في النفوس.

- ٢ -

وما إن مرت على البلاد فترة حتى اهتز هدوء دمشق. ولدت في العاصمة الفوضى، وتوالدت في الشوارع الكبرى والساحات العامة، ونمت كالأعشاب الشيطانية بذور الأخبار التي بثتها الإذاعة صباح ذلك اليوم.

كانت الجموع المتوافدة من الأحياء المنتشرة بطينها وأحجارها بين بساتين المدينة تطالب بعودة الوحدة مع مصر وتندد بالانفصال بعد انتشار الأخبار عن الإلغاء المفاجئ لها. كما تعالت شعارات حملتها تظاهرة التأمت في الطرف الآخر، وهي تشيد بشجاعة الإعلان عن استعادة استقلال سوريا في فرطها لعقد الوحدة المتعسف، وترفع الأعلام السورية القديمة. وكان الصدام متوقعاً بين الفريقين لولا إسراع قوات الجيش إلى الانتشار في كل مكان وتحولها إلى أسوار تمنع أي احتمال للصدام، وكانت أسلحة الجنود متقدة بالغضب وهي تضع حداً لاحتكاك طائش.

وكان هايل الطبيب الشاب يستعد في تلك الأيام للعودة إلى حلب بعد أن انتهت فترة التمرين في مشفى الجامعة. وفي ذلك الصباح الخريفي ارتبط سمعه بصندوق الراديو يتابع فيه التعليق على القرار الأول للانفصال متداخلاً مع بث الأناشيد الوطنية القديمة التي اختفت لسنوات، ويعود النشيد السوري الذي توقف ليطل من الإذاعة من جديد تمهيداً لتصريح جديد لقادة الانقلاب، فكان هايل وهو يتابعه يستعيد أيام الانقلابات السابقة. ودفعه ذلك الصباح الاستثنائي إلى استدعاء أيام الدراسة، فتدافعت الأحداث والوجوه لتملأ مخيلته فما عاد يسمع لغة الراديو. صور الرفاق تزحف بتسارع لتصبح في مقدمة الذكريات. هم يتحركون ويتصايحون، عبث وجد، وكأنهم يكتبون تاريخاً ابتداً، وهو يقف الآن على الحياد منه بعد سنين الدراسة والتعامل مع المشرحة التي

سكنت روائحها في خياشيمه ومسام جلده. واختفى عن سمعه صوت المذيع كبخار أبعده شبح فضيلة التي هبطت عليه من سماء أعماقه، فكان حضورها تعويضاً عن غياب طويل لها. وباتت الصبية تملأ فضاء الغرفة، فكان زحفها نحوه كشعلة النار الضارية فصرخ من مكانه:

«استغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»

مع بداية التحاقه بكلية الطب اختفت فضيلة من حياة هايل، ثم عادت لتلاحق أحلامه بين فترة وأخرى فيبعدها عنه بصلاة في غير وقتها أو تلاوة دعاء، فلا تلبث الأميرة المتباهية أن تطل من جديد. قوام سحري يقوده نهدان يهتزان برقة التحدي للعيون الجائعة وهي تلاحقها. كان يوقن دوماً أنها جنية صعبة المنال.

«من الذي منح الصبية اسم فضيلة، وكان عليه أن يسميها غواية ؟»

«فضيلة التي زرعت حضورها في كبد الشباب تحرك فيهم الرغبة كما تشاء»

«أية فضيلة في إذكاء نار الشهوة في الأرواح بلا أمل؟»

وهكذا كانت إذاعة روحه تبث أخبارها فيتزايد نشاط خياله.

ومع قدوم المساء هدأت المدينة، وعاد هايل من جولة سريعة طاف بها أجزاء من المدينة وأطرافها وقد أراد أن يطلع على حقيقة الأوضاع عن قرب، وحملته الأقدام المتعبة إلى غرفته التي شهدت سنوات الجامعة فكانت الوعاء الذي احتواه في عزلته مستنفزاً فيها كل قواه في الدراسة، وقد تحولت مع كلية الطب إلى المكانين القطبين اللذين يتحرك بينهما في برنامج يومي لا يشذ عنه سوى في يوم الجمعة إذ يؤدي الصلاة في الجامع الأموي.

وتساءل هايل في هدأة الليل التي ألفتها الدار، فتذهب صاحبتها العجوز في نوم مبكر بينما المستأجرون الآخرون لا يفضلون السهر عادة لينطلقوا مبكرين إلى أعمالهم، تساءل :

«هل يمكن لفضيلة أن تبقى حتى اليوم بلا زواج ؟»

وكأن استفساره قد قوي في نفس طبيب حديث التخرج سيبدأ كسب رزقه فيكون صالحاً كزوج، وكأن أوهامه قائمة حول احتمال أن يرى فضيلة كما كانت. وتخيل ما يمكن أن يكون مفاجأة العمر إذا ما عاد إلى حلب ليعلم أن الصبية لم تتزوج بعد، فيعدُّ نفسه للذهاب إلى أهلها طالباً القرب.

«هل يرفض أحد طبيباً ليكون زوجاً لابنته ؟»

منذ شهور وجد هايل نفسه يلتزم بالصلوات الخمس بعد أن كانت صلاة الجمعة الوحيدة في برنامجه الأسبوعي. وفي يوم الانفصال وجد نفسه يؤدي الصلاة في غير موعدها فيتوجه في نهايتها بالدعاء إلى الله أن يحفظ له فضيلة. واستمر خشوعه أمام محراب انتصب أمامه يداخل قلبه إيمان بحقه في الصبية، إلا أن استمرار الدعاء قَرّبه من طلب المغفرة في ذهابه بعيداً نحو تعرية الصبية أحياناً. وارتفعت عقيرته باستنزال الرحمة على أفكاره الفاسقة، فقد كانت ليلة التعبد تلك بداية تحول عميق اهتزت له روحه، فتوجه إلى القرآن الكريم ليقرأ فيه بينما الليل يوغل في اقترابه من ساعة الفجر.

وفي صبيحة اليوم التالي وجد هايل الشجاعة ليفكر بصوت مرتفع، ويتهم عبد الناصر فجأة لإعدامه (سيد قطب) وأخوانه من جماعة الأخوان المسلمين في مصر، متناسياً أنه تغنى من قبل بزعامة جمال عبد الناصر للعرب في كل مكان ومشيداً بتأميمه لقناة السويس كما أن وقوفه في وجه العدوان الثلاثي على بلده جعل منه البطل الذي يؤمن به. وهاهو الآن يتابع إذاعة دمشق مؤيداً إعلانها عن الخلاص من براثن المخابرات والاستعلاء المصري، ويشعر أن الوقت قد حان

للاستجابة إلى دعوة رفاق في الكلية إلى الاجتماع في الجامع القريب من سوق (الحميدية) فسيكون هناك مسؤول من جماعة الأخوان يتحدث عن الأوضاع المستجدة في البلاد. وبدأ هايل يدرك أن تلك الدعوة تحمل تكريماً له وثقة به لم يعرف مثلها من قبل. وسمع في تلك اللحظات صوت صاحبة الدار تنادي عليه، فيطل على الحوش من نافذة غرفته ليجد العجوز في وقوفها بالقرب من حوض الماء الذي توقفت نافورته تهتف بحزن من فقد عزيزاً:

«هل سمعت الأخبار يا حكيم ؟»

فكان في وقوفه أمام النافذة العالية يحاول أن يظهر وكأنه لم يسمع شيئاً، فإذا بها تصرخ وكأنها فقدت عزيزاً عليها:

«انقلاب على عبد الناصر، يا عيب الشوم يا عسكر !»

وكان هايل يقول بصوت لن تسمعه الجارة:

«لكل ظالم يوم ولابد من مجيء يوم الحساب مهما تأخر»

وكانت العجوز تدور حول الحوض الراكد كمهووسة مسها الخطر الذي تتوقع أن يصيب البلد.

لم يثنه قول العجوز عن اتخاذ القرار الحاسم في الالتحاق مساء اليوم التالي بالجماعة في الجامع، والذي سيكون أول خطوة له في عمل سياسي جدي. وكان قد اتخذ قراره في تأجيل العودة إلى مدينته لتكون بعد ذلك اللقاء المرتقب الذي تبدأ بعده حياة جديدة في خدمة ربه وأهله. وراوده إحساس آنذاك أن رفيقاً واحداً بقي له من الماضي وهو الشيخ حامد الذي سمع بأنه بات إماماً معروفاً بالتقوى.

وكانت دمشق قد استعادت نظامها اليومي، وخلت الشوارع من عناصر الجيش المسلحة وبقيت الدوريات في المدينة التي يتخفى رجالها من فروع الأمن في صناديق سياراتهم يحملون أسلحتهم غير المرئية وعيونهم تجول وآذانهم تتنصت في زوايا المدينة بحثاً عن أي خرق للنظام الجديد. الأسواق

تمارس نشاطها والناس يمضون في طريقهم لتدبير أمورهم، واستسلمت دمشق بهدوء لنظام مازال يغلي بنشاط يرمي إلى تثبيت أقدامه. وعندما اجتاز هايل باب الجامع المقرنص وزخارفه التي أنهكها الزمن بالقِدم، خلع نعليه متجهاً عبر الصحن الفسيح إلى القبلية التي اكتظت بمئات المصلين كان الشباب فيهم الأغلبية، فاحتل هايل مكانه في الصفوف الخلفية، وما إن هب واقفاً استجابة لنداء صلاة العشاء حتى تحسس وجهه ليجد أنه مازال حليق الذقن بينما نمت اللحى بأشكالها المختلفة في وجوه المصلين.

بانتهاء الصلاة افترش الأرض جمع كبير ملأ كل بقعة من المكان، وتوجهت الأعين إلى رجل خمسيني تربع على سدة عالية قريبة من المنبر الخشبي المرصع بالأصداف وقد نافست إشعاعاتها أنوار القبلية ترسل بها أربع ثريات من الكريستال، فكان النور المخيم يضيء في النفوس استسلاماً تستعد له في الإصغاء إلى خطبة الرجل، والذي كان أشبه بزعيم سياسي وهو ينتصب واقفاً على قدميه. تحدث الرجل عن الغمّة التي زالت عن صدر الأمة، وأشاد بالنعمة التي منحها الله فكفت يد الحكم المصري عن إلحاق الأذى بالعباد والتحكم في أحوال البلاد. وكانت كلمات الخطيب تلعب بمشاعر المستمعين تشعلها لحظة تريد، وإذا ما أكد على تماسك الجماعة بالرغم من اضطهاد نظام عبد الناصر لها ولقتله أهل العلم والجهاد من أهلها، طفرت عيون بالدموع بينما يستعرض الخطيب أسماء الشهداء من الجماعة ويعدد أوصافهم وأفعالهم التي كانت من رموز التقوى والقرب من الله، وانتشت الأسماع في إصغائها إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي ختم بها الخطيب حديثه، والتي جاء بعدها شاعر الجماعة يشد الأسماع إليه.

وتبين لهايل في تلك الليلة المفعمة بالإيمان أن استجابته لحضور هذا الاجتماع ستكون بداية الصحوة التي تأخر كثيراً عن تذوّق حلاوتها، ووجد نفسه في نهاية الكلمات التي استمرت حتى وقت متأخر يهب واقفاً مع الآخرين مهللاً ومكبراً استعداداً لأداء صلاة الشكر. ركعتان قادهما الخطيب

إماماً، جاء بعدها تبادل السلام مع عدد كبير من الحاضرين كأصدقاء قدامى لهايل الذي امتلأت روحه بنداء سماوي سيحتلها لوقت طويل.

وسيحمل الطبيب هايل ذكريات أسبوعه الدمشقي الأخير وقد غطت على مرحلة الدراسة الثانوية، وأقفل راجعاً إلى حلب بذخيرة من الكتب، مراجع طبية ومجلدات في الفقه والتفسير ومجموعة من مؤلفات الجماعة أخذت عنده مكانة قدسية.

تقاطر الأقارب والجيران على دار الأهل في (باب قنسرين) يحتفلون بعودة الحكيم المظفرة. كانوا يعلنون عن فخرهم بإنجاب أول طبيب يخرج من حيهم. وبالرغم من أحلام هايل السابقة في السفر إلى أوروبا طلباً للاختصاص، فإنه وجد في عواطف أهل الحي قوة تشده إلى البقاء في بلده، وقد يكون موقفه المستجد في ارتباطه بالجماعة دافعاً له في دعمها. وعندما أعلن الطبيب في اليوم الثالث من احتفالات الحي أنه سيعمل على خدمة أهله من فقراء ومحتاجين إلى العناية، هبّ نفر من الزوار وقد تأثر بنيَّة الحكيم واعداً بالبحث عن عيادة له، وكأن القدر بات يرسم أن يكون هايل ملكاً لحيِّـه وفخراً له.

وتلاحقت أيام التعثر في العثور على مكان مناسب يتخذه الحكيم عيادة، وبالرغم من اهتمام مختار الحي نفسه وهو يبث العيون في كل زاوية وعطفة من أزقة باب قنسرين وما يجاوره مستخدماً سمعته الطيبة في العثور على المكان المطلوب، فإن الفشل كان يلاحق البحث. وكانت تلك المنطقة القديمة تختنق ببيوتها العربية والدكاكين الصغيرة والخانات المتخمة بالأقمشة والخيوط القطنية والأحذية أو الحيوانات، فلم يكن هناك من أمل في ركن لعيادة.

وحدث في أصيل يوم أن طرق باب الدار رجلان سأل أحدهما عن الدكتور هايل الذي فوجئ نفسه بهما وهو يرحب بقدومهما دون معرفة سابقة بأي منهما، ولم يستجب أحدهما إلى دعوة الدخول بل قال الرجل الذي انتشر الشيب في لحيته إن الجماعة تهديه التحيات الطيبات معلناً أنها في قرارها لمدّ

يد المساعدة للطبيب الجديد تعرض عملاً في المستوصف الملحق بجمعية خيرية إسلامية، وأضاف الرجل أن العمل في المستوصف لن يتعارض مع أي عمل آخر إذا شاء أن يشارك الوقت في المستوصف.

«الآن أعلم أهمية الجماعة في مساندتها لأخوانها»

وكان العرض قد أصاب هوى من هايل فأعلن عن ترحيبه به وموافقته، ولمعت عيناه فرحاً وهو يعلم أن المستوصف قريب من الحي الذي هو فيه، فهو في (باب الحديد)، وهكذا سيظل على صلة بأهله. وهتف من جديد في سره:

«كان علي أن ألتزم بالجماعة منذ زمن. كنت متعاطفاً ولم أكن ملتزماً»

أحس هايل في ليلته البيضاء التي توج مشاعر الحي فيها اهتمام الجماعة به وإفساحها له مجال العمل، أحس أن الوقت قد حان لزيارة الشيخ حامد، فقد كانت خلافة رفيق المدرسة لوالده الشيخ عصفور الجنة مع ما اكتسبه هو من مكانة يتحدث عنها الناس، جعلته الأقرب إليه بعد قراره الانتساب إلى جماعة الأخوان بشكل فعلي. فهاهي الأيام تغزل ببراعة نسيج التواصل بين الماضي والحاضر، فأي مستقبل طيب فتح أمامه الأبواب !.

وإذا ما وصل هايل إلى المسجد ليلاً لمعرفته أن الشيخ حامد يقضي معظم أوقاته فيه ويكون هناك بعد صلاة العشاء أيضاً. وجد الباب مغلقاً، إلا أنه مع إضاءة عمود الكهرباء في الحارة لمح تجديداً في الباب ظهر في المسامير السود التي توزعت في كتابة واضحة. قرأ «ادخلوها بسلام آمنين» فأدخلت الكلمات في روعه أن رفيق الصبا قد طبع بصماته على المستقبل الذي كتب عليه وهو يجدد الباب العتيق بالآية الكريمة. هتف بفرح داخلي:

« يا لصلاح هذا الأخ وتقواه !»

ومع تكرار قرع الباب بالسقاطة الثقيلة انفتح له ليطل رجل تكاد قامته تسد الفتحة. سأل هايل إن كان الشيخ حامد موجوداً، فانطلق الرجل قائلاً بعتب خفي:

«الشيخ حامد نهر العلوم »

وأضاف متسائلاً :

«أهناك موعد سابق مع فضيلته ؟»

وإذا ما أعلن هايل أنه رفيق مدرسة قديم، بات الرجل أكثر ليونة وهو يقول:

«تستطيع الانتظار إلى أن ينتهي مولانا من خلوته»

بعد قليل من معاينة صحن المسجد يتأمله هايل، جاءت الدعوة. وجد نفسه في غرفة صغيرة ينتظر، وما هي لحظات إلا وأطل من الباب الداخلي رجل وقور تسللت إلى لحيته شعرات بيض. لبث الحكيم في وقفته كطالب في المدرسة وهو يعاين القادم المهيب فيبحث عن حامد فيه. عطر الشيخ يسبقه وهو يرافق لمعان العينين تحملان قدراً من الترحيب واضحاً في (أهلاً بك) التي هتف الشيخ بها من مكانه.

كان الشيخ حامد بعباءته والغطاء الأبيض على رأسه يتقدم بخطوات من هايل. وفجأة بات المشهد في العناق بين الاثنين أكثر حرارة وهو يظهر المودة المتبادلة. وتحول اللقاء في جلوسهما متقابلين إلى حديث عن الصحة وأخبار الطب، أما عن ذكريات المدرسة فلم يأت أحد عليها ولو بإشارة إلى أشخاصها. وظهرت في اللقاء أهمية المكان في تقارب الرجلين. أشاد الدكتور هايل بسمعة الشيخ حامد العطرة، وأعلن الشيخ عن استعداده الدائم للمساعدة فأخوة الإيمان لا تخذل أهلها. وظهر في نهاية اللقاء كأنهما ينطلقان من حاضرهما بعيداً عن فترة الماضي التي انقضت.

- ٣ -

لم يبدِ النقيب تركي استغرابه من قرار نقله المفاجئ من سلاح المدفعية إلى جهاز الأمن العسكري، فالرفاق في قيادة الحزب يعلمون ما يكفي عن إخلاصه وصلابته ليكون في الجهاز عيناً ساهرة. وبالرغم من انتساب تركي الحديث إلى حزب البعث الناشط في النظام الجديد الذي بات الحاكم في البلاد، فقد أظهر النقيب في شهور قليلة مرت على الثامن من آذار حيوية لافتة، وكان اشتهاره بالتكتم والحزم في عمله العسكري والحزبي هو الذي دفع إلى اختياره للعمل الأمني، فأصبح الرجل الثاني في الفرع بحلب مدينته التي يعود إليها بعد غياب متقطع استمر منذ انتسابه إلى الكلية العسكرية في حمص.

وذهب أول أيام العودة إلى الاستقبال الذي نظمته العشيرة وقد تقاطر أفرادها للترحيب بتركي الذي كان يعتبر أول شخص فيها يحتل مثل هذه المكانة المرموقة. وتحاشى المحتفى به التحدث عن طبيعة عمله الأمني تمشياً مع حرصه على السرية، وكان يؤكد لكل من رحب به أنه مجرد عامل في الجيش الذي جعل لحماية الوطن من الأعداء. هو يحاول في حركة يقوم بها أو في الكلمة التي ينطق بها أن يظهر ببساطة الطالب التي كان فيها أيام الدراسة الثانوية.

وفي اليوم التالي خرج بلباسه المدني ليطوف في حي الجميلية. ابتدأ بمدرسته القديمة وانتهى بدار الصبية، وفي تطوافه لم يشهد لفضيلة أثراً. وقضى زمناً من الطواف حول حارة الصبية وداخلها، كحاج تائه في صحراء كانت الكعبة فيها سراباً. ومنعته كبرياؤه الدفينة من سؤال أحد من الجيران عن خبر ما يدل على أهل الدار التي لم يجرؤ على الاقتراب منها، إلا أن أطياف خياله لم تتوقف لحظة عن ملاحقة صور البنت الساحرة في كل مكان.

من هنا. فضيلة كانت تعبر ممشوقة القوام فتحفر في بلاط الرصيف آثار خطواتها التي لا تزول. هناك. تتسرق كالنسمة لتغيب في غياهب الشوارع والحارات تلاحقها أحلامه فلا تلبث أن تختفي كأنها جنيَّة. وفي تشعبات حارات الجميلية انتشرت رائحة فضيلة كرذاذ آسر، فيردد في سره أن تسمية الحي الحقيقية هي (الفضيلية) بدلاً من الاسم الشائع. وهاهو يعيد ذكر تلك التسمية كأغنية يطرب لها فتبدو كلازمة في أهزوجة شعبية تنتظم تدفق خيالاته. فضيلة كانت ومازالت تمثل المحور الذي تدور حوله ساعات عمله ومسيرة نشاطه السري في الحزب بل تفاصيل حياته في كل مرحلة. هي الأنثى العملة التي يشتري بها المتعة المعذبة والتصورات المختلفة في تتويجها فضيلة زوجة وحبيبة وحضناً يرمي برأسه عليه وجسداً يشحنه بالدفء ولهفة تدفع به إلى التمسك بالحيـاة كما يفعل الطفل مع أمه.

تساءل النقيب تركي في وقفته عند أول حارة فضيلة:

«أيعقل أن تبقى صبية كفضيلة دون زواج حتى اليوم؟»

وكان مثل هذا التساؤل كافياً لإشعال الغضب في كيانه، فارتجت ساقه تدق الأرض، إلا أنه سرعان ما تمالك نفسه خوف أن يفقد مهابته، وسيطر على نفسه بجهد كبير، ومع ذلك لم يقدر على منع شفتيه من توليد كلمات متلاحقة:

«الويل.. الويل إذا حدث مثل هذا الأمر. الويل لك يا تركي»

وسيقفل عائداً إلى الدار التي انفض عنها المحتفلون ليعود الهدوء إليها. كانت الأم عند الموقد تعد الطعام وانشغل الأب بتغذية الأغنام في الزريبة التي تشغل حيزاً من فناء الدار، وانطلق أبناء أخوته الصغار يلاحقون النحل المتطاير في فضاء الحوش، فيزداد إيمانه بأن حياة كهذه لم تعد لائقة بمستقبله الذي بات مرسوماً له. جلس تركي تحت شجرة التوت يفكر في السكن اللائق الذي عليه أن يعده لاستقبال فضيلة.

«أهلاً بك في بيتك يا سيدة المدينة»

وأشعل سيجارة وقد انشغل فكره في تقليب صفحات الأيام القادمة:

«هل أتقدم إلى طلب يد فضيلة أولاً، أم أعد سكناً لائقاً بالزواج؟»

وفي لحظات من استعلاء العسكري، قال لنفسه:

«من يقوى على رفض نقيب في الأمن العسكري!»

ثم ما لبث أن طوى أوراق أفكاره الغاضبة بينما ثغاء الأغنام يختلط بتصايح الأطفال، وكان دخان الموقد يحوم في فضاء الدار لتهبط عليه غيمة سوداء شكلت ظلاً ثقيلاً عطّل عقله عن التفكير فكأن الدخان ستارة حجبت الصور عن شاشته.

في اليوم التالي التحق النقيب تركي بعمله الجديد. حمل معه خططه الحازمة ودخل المبنى بترحيب رسمي لم يشهد مثله في قطعته العسكرية السابقة. ومع مرور أيام قليلة ابتدأت طريقته الحازمة في الظهور، وكانت طريقته في إجراء التحقيق مع مشتبه أو متهم تثير إعجاب العناصر فيتحدثون عنها بتقدير. وبتدرج العمل كان حضور النقيب تركي يكتسب احترام الجميع، وقد ساعد على ذلك أن العقيد رئيس الفرع لم يكن حزبياً فكان يظهر دعمه الكلي للنائب الجديد. وكانت ملاحقته لجماعة الناصريين تأخذ اهتمامه الأول بشؤون البلد. وأما فضيلة فكانت لها الحظوة، لذا كلف تركي رجله الموثوق، وبعد اختياره من بين الجميع، لجمع المعلومات عن دار فضيلة وسكانها، وسيفاجأ بعد فترة بأن الأسرة مازالت تقطن حيث هي دون معلومات واضحة عن الابنة، وهكذا لمع ذهنه بفكرة ستكشف له الحقيقة الكاملة.

لجأ النقيب إلى استدعاء رسمي للأب سامي أبو خشبة للإدلاء بشهادته عن السكان اليهود في الجميلية. حضر الأب فاستقبله النقيب بابتسامة خففت من

مخاوفه. رحب تركي بالأب كضيف أُوحِيَ له بأن معلوماته ستساعد الحكومة في خشيتها من استخدام اليهود من قبل المعادين للوطن. هتف الأب آنذاك ببراءة:

«من الشائع أن العائلات اليهودية كانت في سرها تؤيد الانفصال، إلا أن أحداً لم يسجل عليها موقفاً معادياً يا سيدي»

وتجاوز النقيب تركي ملاحظة الأب، وذهب في القول إلى أنه واحد من البارزين في حي الجميلية، وهذا يعني أن ملاحظاته حول الحياة اليومية لها قيمة كبيرة ستساعد على حفظ النظام وتوفير الأمن. ووجد الأب نفسه يعلق بالقول إنه بالرغم من ولادته في الحي ومن قبل كان والده، إلا أنه يؤكد على مسالمة جميع أهل الحي واحترامهم لحكومتهم، وأضاف أن التعايش بين أهل الديانات الثلاث في الجميلية يبرهن على ذلك، واستطرد في الحديث ليشير إلى أن أسرته التي يرعاها وهي تضم ابنيه فيدرس الكبير في الجامعة والآخر يعمل عند تاجر كبير، وأما ابنته الوحيدة فقد تزوجت من سوري تقيم معه في السعودية.

هاهي الحقيقة تتكشف. قاسية كانت، سكين انغرس منه النصل في الفؤاد. مسحت الأحلام في لحظة واحدة بخبر عارض أطلقته شفتا الأب البائس، وتلبدت الظلمة في روح تركي فتكسرت الآمال وتمزق شراع الشوق في الإبحار نحو مرفأ حبيبة العمر. لقد اختار الكلية العسكرية كي يختصر زمن تكوين قدراته فيقترب أكثر من الحصول على فضيلة، وهاهو يتلقى دون إنذار صفعة كادت أن تكشف خيبته فتضعف هيبته. وفيما يستعرض سنوات الأمل التي مرت عليه كالحلم الذي لا يعرف اليأس، فإذا هي تتمخض عن خواء. صرخ النقيب تركي في أغواره السحيقة:

«أتكون تلك هي النهاية ؟»

- ٤ -

جعلت بشائر الربيع تتمطى في الأيام الأولى للشهر الذي ستشهد نهايته بداية الفصل الجديد في مدينة (روما) وحدث فجأة خلل في مناخ المدينة، فقد عاد الشتاء من جديد ليتمدد على حساب الربيع الذي لن يتحقق قدومه إلا بتأخير لا يقل عن أسبوعين من الموعد المقرر له عادة في السنوات السابقة.

وأطلت الشمس من بين الغيوم الراكضة في سماء روما لتسيطر أشعتها بعد قليل على صفاء الجو الذي هللت له المدينة، فتسللت جدائل الدفء كالنعمة إلى جسد الشجر والبشر، وكانت النافذة المتسعة، كشاشة ترحب بالدفء القادم، في مرسم أحمد فينسج في صالته قماش الطمأنينة في الصباح الوديع.

وبينما أحمد يتفحص لوحاته المنتشرة في كل زاوية، سمع (ماريانا) تناديه من غرفة النـوم، إلا أنه بالرغم من قرب مصدر النداء لم يستجب له إلا بعد تكراره للمرة الثالثة، بعد أن بقي مسمراً أمام الحامل الخشبي يعاين لوحته الأخيرة بحثاً عن لمسة تحتمل الإضافة، فرمى بالريشة ومشى ببطء إلى الداخل، وكانت ماريانا جالسة أمام الراديو بتحفُّز كوَّمها على نفسها، وما إن أحست بوقع أقدام أحمد حتى هتفت دون النظر إليه:

«أخبار عن سوريا»

ثم دعته إلى الجلوس بقربها وهي تلخص له ما سمعته في الأخبار التي تحدثت عن فتنة عسكرية جاء ذكر مدينة حلب فيها. وارتعشت أوصال أحمد وأقعى جالساً على طرف السرير.

سنوات مرت عليه في روما. عمر من الغياب لم تتح لأحمد فيه فرصة واحدة يزور فيها حلب، وهاهو الآن يتلقى ضربة على رأسه فيلبث خانعاً كتلميذ وقعت عليه عقوبة. واحتضنت الصبية صديقها بحنان تطوقه بذراعيها وهي تردد في أذنه أنها سعيدة لبعده عن تلك الأحداث، إلا أنه هتف بيأس:

«ترى ماذا يحدث للأهل والأصحاب؟»

وفرّخ الحنين إلى بلده الذي يعيش بداخله رمزاً لم تؤثر فيه أهمية روما نفسها، واستيقظت التفاصيل الحلبية تنهال عليه كمطر غزير. الماضي يحمل رماحاً تهاجمه في كل زاوية من روحه في قيحها القلق الذي لم يهدأ إلا بعد اتصاله الهاتفي الفوري بالأهل ليطمئن عليهم، وإذا ما سمع منهم خبر نهاية الفتنة عادت السكينة إليه.

ووضع اللمسة الأخيرة على اللوحة التي يعدها للمشاركة في معرضه القادم، وكانت لوحة (فتاة شقية من هناك) التي منعت ماريانا كالعادة من متابعة تكوينها، والآن يفرج أحمد عن لوحته التي أثارت حيرة صديقته لحظة رؤيتها. دارت ماريانا حول اللوحة تستطلعها من كل زاوية بدهشة تصاعدت في قولها:

«ألا تشذ هذه اللوحة عن أعمالك الأخرى؟»

وعادت تقول بإعجاب حرصت على عدم إظهاره:

«أهي امرأة حقيقية، أم أنها جنية من صنع خيالك الشرقي؟»

حفرت كلمات ماريانا في أحمد دون أن يعثر على وصف لها، وبدت له اللوحة كجمرة نائمة أزيح عنها الرماد لتستعيد توهجها. توافدت عليه أطياف

رفاق المدرسة طيوراً جاءت من عمق الأفق لتحط على الأرض شبيبة تمرح في تسابقها نحو هدف لم يفصح عن نفسه. إنه يراهم الآن بوضوح، حامد، هايل وتركي، مجاهد وسليم ورشيد، يسمع كلماتهم في إيقاعاتها المختلفة، وتسقط عليه وردة من فضاء لا سقف له، فاستقبلتها تربة انفتحت عليها وإذا بها تصبح صبية اسمها فضيلة، فضيلة تهيج العيون الجائعة. وكان أحمد أمام اللوحة محدقاً بها فإذا به يهتف بصوت خافت:

«حقاً إنها فضيلة»

واستفسرت الصديقة الفرنسية، التي مازالت تعيش معه منذ سنة، متسائلة عن معنى ما قاله، فقال بلا مبالاة:

«حكاية قديمة. إنها حكاية من الماضي يا حبيبتي»

فما لبثت أن ألحّت على أن يسمعها تلك الحكاية، فقال متبرماً:

«حكاية عن مراهقين. هي حكاية طواها الزمن»

وبدت ماريانا غاضبة في اتهامها له بإخفاء شيء لابد أنه من الأسرار التي يستوجب أن يكشف عنها، إلا أن ابتسامة أحمد المعاتبة خففت من انفعالها وهي تدرك أنها تجاوزت حقوقها فقالت وهي تخفي غضبها:

«أيعقل أن يكون في بلدك امرأة كهذه ؟ لابد أنها امرأة قادمة من أساطيركم!»

وأفلتت مغادرة إلى المطبخ لتعود بعد قليل بفناجين الشاي الثلاثة. استغرب أحمد وجود الفنجان الإضافي، لكن ماريانا هتفت:

«الفنجان الثالث لصاحبة اللوحة»

وراحت تقول مازحة :

«أعتقد أنه من المناسب أن تقيم معرضاً خاصاً للمرأة الشقية فلوحتها استثناء»

وتابعت تتحدث بدهاء عن الشباب القادمين من الشرق يبحثون عن النساء وفي بلادهم امرأة شقية كتلك، فعلق أحمد بقوله إنه لا يستطيع أن يجزم بحقيقة امرأة كهذه، وأظن أن الخيال وحده يصنع مثلها فقط. وكان في قرارة نفسه يعترف بأن تلك التي كان اسمها فضيلة لا تختلف كثيراً عن المرأة الشقية.

واستبعدت اللوحة عن أي مشروع في عرضها للبيع أو مشاركتها لأي معرض. بقيت شريكة ثالثة في الاستوديو تقيم مع الصديقين الحبيبين بين جدران السكن الذي تمارس فيه حياة الفن والحب، وتملأ الفضاء بالحيوية والذكريات المستيقظة من سبات الأيام المشغولة بالألوان والإلهام والعبث. وظلت المرأة الشقية مثبتة على قماش اللوحة لتعلن أحياناً أن فيها أشياء من فضيلة وأحياناً تبحث عما يجب أن تكون عليه فضيلة، وفي كل الأحوال كانت أنوثة المرأة متفجرة في إهاب براءة تريد أن تعيد إلى كل النساء لحظة تفتح الشهوة البكر.

لم تكن في أيام روما فرصة واسعة لأحد أن يستعيد فترة الدراسة الحلبية التي فقدت مع تراكم الزمن مكانتها في صندوق الذكريات. إلا أن أحمد وهو يقف أمام اللوحة تساءل إن كانت المرأة فيها تصلح أن تكون رمزاً لحلب بدلاً من قلعتها، فدفعته الفكرة إلى ابتسامة ساخرة من رأي كهذا وهو

الذي تعود في مروره ببناء (الكلوسيوم) الهائل أن يستعيد قلعة حلب فيرى فيها أثراً في نفسه يفوق كل أثر.

كان أحمد مع الأيام يزداد قناعة بأن الألفة بين الأصحاب مهما توهجت حرارتها ستنطفئ ذات يوم مع أنه قد تكونت له في روما علاقات مع الفنانين من كل بلاد العالم، فقد ازدادت عزلته وبخاصة عندما يواجه قماش لوحة الفارغ، وعندما يشرع في الهجوم عليه بالوقت والصبر فتتكون الألوان والخطوط والأفكار لتكون الوحيدة في التخفيف من تلك العزلة.

وسيجد أحمد نفسه يفتش فجأة بين أوراقه باحثاً عن الرسائل القليلة التي جاءته من واحد من رفاق الثانوية هو (مجاهد) الذي يعيش في بيروت، وكان الوحيد الذي تبادل معه الرسائل لمرات قليلة ليتوقف بعدها عن الإجابة عن الرسالة الأخيرة منذ أكثر من سنة. اكتشف أحمد في استعراضه للرسائل أن كاتبها بقي الوسيلة الوحيدة في علاقته برفاق الماضي، ومع ذلك لم يشر مجاهد إلى الرفاق إلا عبر إشارته ذات مرة وفي سطور قليلة إلى حماقة المراهقة في تلك الأيام وهم يختصرون بتصرفاتهم كل الفتيات بحلب في واحدة وكأنها الأنثى الوحيدة في المدينة دون تخصيصها باسم، وكتب مجاهد أنه في اختلاطه بمجتمع بيروت سيفاجأ بأن النساء أنواع لا تحصى، ومع هذا لم يخفِ اعترافه بتفرُّد الفتاة الحلبية بأنوثة لا تنسى، وهي تذكر بالأساطير القديمة التي تعودت أن تمنح النساء فيها سحراً وقدسية.

ومن جديد يجلس أحمد على كرسي يقابل لوحته (المرأة الشقية من هناك) وهو يتفحصها في كل مرة وكأنه يراها حديثاً، ويتشكك أحياناً إن كان

هو الذي رسمها أم أن شيطاناً فعل ذلك. ويبدو تكوين المرأة وكأنه خرج من طين مدينة لا يظهر عمرانها بشكل واضح فكأن المدينة نفسها تولد لتوها من رحم تاريخ مجهول. كانت المرأة التي تتوسط حلقة من أعشاب مالت عليها فلا يعرف إن كانت تريد قطف الأزهار منها أمْ تمدها بالقدرة على النمو الشيطاني، وكانت ترنو بعيون الشوق إلى بعيد تريد أن تستنهض العمائر كي تؤكد وجودها. وقد شكلت اللوحة اتجاهاً مغايراً لكل أعمال أحمد السابقة فخرجت بواقعيتها السحرية عن سياق أتقنه، من كلاسيكي و تجريدي أيضاً، فهتف أحمد إن كانت هذه اللوحة بداية لمرحلة جديدة في حياته الفنية أم أنها نزوة هربت من ريشته أم هي انتفاضة على نمط عيشه اليومي في روما التي أدمنها فلم يستطع أن يفارقها فيعود إلى بلده بعد انتهاء الدراسة الأكاديمية، كان نجاح أحمد في استقطاب الاهتمام منذ الأيام الأخيرة في المعهد وذيوع صيته خارج إيطاليا قد زاد من ارتباطه بروما الذي خفف عنده من مرض الحنين إلى الوطن.

ذات يوم هتف أحمد بصوت رددته الجدران وسطوح اللوحات:

« أما حان الوقت؟»

فتساءلت ماريانا عن معنى هتافه فقال إن غيابه عن الأهل والمدينة قد طال ولابد من فعل شيء ولو في زيارة خاطفة لبلده، فقالت متسائلة إن كانت ستكون في صحبته، فسوريا بلد تاريخي جميل، فما كان منه إلا أن قال إن هذا ما يفكر فيه أيضاً، فصاحت بفرح إن كان هذا وعد منه لها فأجاب ساهماً بأنه لا يعلم متى ستكون الزيارة مناسبة.

-٥-

فترة من الزمن غير محسوبة، ولكنها طويلة تلك التي مرت على آخر رسالة تلقاها مجاهد في بيروت من رفيقه أحمد. كان أبرز ما جاء فيها فقرة عن (البيتزا) الإيطالية التي تنوعت أشكالها لتذكره أحياناً بأيام المدرسة في التجهيز الأولى التي تنوع الطلاب فيها كما هي البيتزا تماماً. وكتب أحمد أن أصناف (البيتزا) في المدرسة تفوق مثيلاتها في إيطاليا.

وفي ليلة بقي فيها مجاهد يتابع وحيداً أعمال دار النشر التي يديرها، استمر رنين الهاتف بينما مجاهد يقرأ في الصفحات الأخيرة من مخطوط، وإذا ما ألح عليه الرنين طوى الكتاب ليمسك بالسماعة ليوقف الضجيج الملح. جاءه صوت ضاعت ملامحه في الصدى الذي يرافقه فتأكد له مصدر المكالمة أنها من الخارج، وسيدرك في لحظات أنه صوت رفيقه أحمد ويأتيـــه من روما. كان الترحيب بالطريقة نفسها التي استعملها الرفاق سابقاً هو الذي تبادله الصديقان، وكأنه قُدِّر للمرح السابق أن يعود في تلك اللحظات إلى الماضي متجاوزاً مرور الزمن.

أعلن أحمد عن زيارة قادمة في الصيف القادم مرافقاً لمعرضه في بيروت، وقال إنها ستكون له ولمجاهد الفرصة لزيارة حلب، وتساءل:

«هل ستكون لنا الفرصة في استعادة ماضي الأيام الجميلة؟»

هل تعود حقاً تلك الأيام ؟

وتحركت الذكريات في أعماق مجاهد، وتدفقت غزارتها فور الانتهاء من المكالمة. وعند وصوله إلى البيت تساءلت زوجته عن سر البهجة التي تحملها عيناه، فانطلق يحكي لها بفرح عن الهاتف الذي جاءه من غير ميعاد

ليوقظ الماضي ويهيج الحنين إلى حلب. كان صوت الرفيق القديم يسمح له باستعادة فترة من تاريخه كادت أن تغيب في طيات بيروت.

وعلى مائدة العشاء الذي بات استثنائياً انسجاماً مع اللقاء المرتقب بين مجاهد وأحمد في الصيف، تبادل الزوجان الأنخاب ليتحول العشاء إلى احتفال تنتعش فيه الذكريات. ومع كأس النبيذ الثالث سرق مجاهد نظرة من وجه زوجته (قمر) فإذا به شيء من فضيلة. بريق العينين الذي تنبض به نظرات قمر يذكره بالصبية التي جعلت تطل عليه من ثنايا أيام المدرسة، وكانت ابتسامتها تحرك فيه الحنين.

كان قد لمح في الصيف السابق فتاة تتصفح كتاباً في صالة معرض الكتب الكبير، فأحس في تلك اللحظة المشرقة أنها الشيء المميز الذي لا يشبه واحدة من اللواتي عرفهن في مرحلة الدراسة الجامعية أو في عمله في النشر أو في ليالي بيروت الساهرة. وجعل يتابع حركة الفتاة لأكثر من ساعة وهي تنتقل من جناح إلى جناح لتتحول إلى جزء من المعرض الذي لا قيمة له من دونها. هي كتاب مفتوح تكشف سطوره عن أفكاره ومعانيه من غير تفكير. فتاة نقية واضحة، والوجه السمح الجميل يشع بالثقة، وإذا ما اقتربت من جناح الدار انبرى لها مجاهد مرحباً من دون آخرين دخلوا الجناح، فأبدت استجابتها للترحيب فيما يدور بينهما حديث وكأنهما يتابعانه بعد انقطاع. جلسا متقابلين يفصل المكتب الحديدي بينهما يشاركهما كأسا القهوة الورقيان بمزيد من المودة. كانت الفتاة الأردنية تدرس الاقتصاد في الجامعة الأميركية التي كان مجاهد فيها من قبل، وأثار استغرابه اهتمامها بالروايات المترجمة التي تصدرها الدار، وفوجئ بقولها إن أعمالاً عالمية في الرواية تساعدها على فهم الأشكال الاقتصادية واتجاهاتها وعلاقة البُنى الاجتماعية بها.

وكان استعراضها لعدد من الروايات المنشورة يكشف لمجاهد مدى عمق تحليلها للأشخاص والأحداث. وتسارعت العواطف المتلاقية بين الشابين، فكان التقارب يسابق الأيام لينتهي إلى زواج انعقدت أفراحه في عمان، وليعود الزوجان إلى بيروت التي أصبحت مقر إقامة العائلة الجديدة.

وفي عشاء تلك الليلة طلبت قمر من زوجها أن يحدثها عن صديقه الفنان أحمد، فوجد مجاهد نفسه ينتقل من الحديث عن أحمد إلى استعراض رفاق المدرسة واستدعاء الأيام التي جمعتهم في حياة مليئة بالمرح والأسرار الساذجة والأفكار البدائية في السياسة والاقتصاد. كان يستعيد الماضي الحلبي في شريط متسارع مليء استبعد منه أي ذكر لفضيلة وكأنه يتحاشى إثارة الغيرة في زوجته التي باتت تشكل جانباً هاماً من مشروعه الثقافي ومحوراً تدور حوله سعادة الأسرة.

وفي حضن الفراش شهدت تلك الليلة هجوم فضيلة على خيالات مجاهد المتلاطمة كأمواج المحيط فاستأثرت الصبية بالعمق والزبد أيضاً. ظلت عيناه تحدقان في الظلام وتشتعل بداخله تلك الرغبة التي كانت تحوم حوله أيام المدرسة وقد باتت عاصفة في فترة التحضير لامتحانات البكالوريا. ما أكثر الليالي التي كانت فضيلة فيها بين ذراعيه تتقلب كأفعى اختزنت خبرة آلاف السنين، وهي تصده مرة وتستسلم أخرى.

تهرب فيلحق بها،

تُقدم عليه فيفتح لها ذراعيه،

تتأفف، تصرخ وتتأوه، فيتعرّق جسده وتنزف أعضاؤه لذة يهدر بها ينبوع لا يجف.

مجاهد فتى متكتم يحتفظ بسره لنفسه الذي سيمتلكه ويتملكه فلا يفصح لأحد بإشارة أو علامة أو كلمة ينزلق بها لسانه. كانت فضيلة كنزه الدفين المؤرق.

ومنذ اليوم الأول الذي حط فيه رحاله في بيروت وحتى اليوم، لم يخرج اهتمام مجاهد عن السعي الجاد إلى حصوله على الشهادة الجامعية ليكمل من بعدها المضي في إنشاء مشروعه. وكانت دار النشر التي كوَّن والده رأسمالها قد مهدت الطريق لنشاطه في إصدار الكتب التي يختارها بعناية وفق محاور كان أهمها الرؤية النقدية للمجتمع العربي وكذلك ترجمة أعمال فكرية وأدبية تحمل روح التغيير والتجديد. كان يختار الكتب بعناية أثارت الجدل الواسع في أوساط الثقافة والصحافة والأحزاب أيضاً، إلا أن عزيمته لم تثنها اتهامات صُبَّت عليه من يسار أو يمين أو من جماعة متدينة أو ملتزمة بتيار ديني على اختلاف مشاربه، وظل مثابراً على قطع الخطوات التي رسمها لنفسه منذ البداية.

وبالرغم من تمويل الأب له إلا أنه لم يتوقف في أحاديثه الهاتفية أو زياراته الخاطفة عن اللوم والعتب المبطن لخروج الابن عن تراث العائلة التي لم تنقطع جهودها عبر أكثر من جيل عن بناء مجدها المالي الصناعي، وكان مجاهد وهو يدير ظهره لتلك المنتجات العظيمة، يتحمل بروح رياضية اتهاماته باختيار ذلك اللغو الذي اسمه نشر الكتب بدلاً من عمل سياسي أو دبلوماسي يُشرِّف به العائلة، ويمضي قدماً في مشروعه.

«هل أنجبتك يا ولدي لهذا؟!»

ولطالما ضحك مجاهد في سره من أفكار أبيه وتصوراته المحددة لنجاح الإنسان، إلا أنه لم يتوقف مع ذلك عن حبه وامتنانه لمساعدته له.

«أن أحب والدي لا يعني أن أمشي على خطاه أو أخضع لأوهامه»

وهكذا كان اختياره بيروت للدراسة والعمل أشبه بهرب مدروس من شِباك العائلة، وتأكيداً على تحقيق الأمنية القديمة في السعي نحو الأفكار الجديدة.

لم ينتسب إلى حزب أو تنظيم، إلا أنه وُسِم بالتطرف في أوساط مختلفة منها الحكومية، وتحولت داره للنشر مع الأيام إلى مقصد لمفكرين وكتاب من أنحاء الوطن العربي يتوجهون إلى بيروت من أجله. وتحول حضور الدار إلى مركز يستقطب ألوانا مختلفة من التيارات التي تغلغلت في بنية الوطن الكبير. كان يُطلق عليه أحياناً لقب الماركسي الليبرالي، ويشير إليه خصوم على أنه المليونير الزهري فلم يكن أحمر كما يجب على اليساري أن يكون، كما ذهب البعض إلى أنه خان طبقته التي نشأ فيها ولم يُخلص لها ولا أخلص أصلاً لأي اتجاه فكان نموذجاً للترف أو الضياع العربي ولم يعتمد مجاهد في أعماقه أياً من الأوصاف تلك..

وفي الصباح الذي جاء متأخراً بعد ليلة الذكريات المتداخلة مع أحلام المراهقة، ابتدأ مجاهد يومه بالبرنامج المعتاد. شرب الشاي مع قمر على الشرفة المطلة على بيارات البرتقال، واستمع إلى أصوات الطيور المختلفة وكأنها تعيد روح حي مزدحم أو أنها تذكر بملعب المدرسة وهتاف المشجعين لمباريات كرة القدم. وكانت قمر قد علقت على استغراقه في النوم إلى وقت متأخر لم تألفه فيه، وتساءلت بحنان إن كان يشكو من شيء، إلا أنه ابتسم قائلاً إن الأحداث العامة لم تساعده على الذهاب في النوم سريعاً كعادته:

«ألا تعتقدين أن دمّل إسرائيل سينفجر في أية لحظة؟»

هكذا قال وهما يتوجهان إلى مائدة الإفطار، ثم ما لبث أن هتف:

«أشعر باقتراب العاصفة»

فعلقت زوجته وهي تقدم له (التوست) الذي يفضله:

«لن تكون لبنان يوماً ساحة لأي حدث»

وأضافت بمرح متفائل :

«خلقت بيروت لتكون بلداً للسياحة وضماناً لحرية الكلام والكتابة»

كان مجاهد يلاحق زوجته بنظرات الإعجاب التي لم تبتعد عن المحبة الرقيقة التي مازالت تشتعل في قلبه منذ اللقاء الأول، فسمعها تقول في رجوعها من المطبخ :

«ألا تعتقد أن العالم والعرب متفقون جميعاً على أن تبقى لبنان في هذه المنطقة كما هي سويسرا في قلب أوربا ؟»

وبينما يستعد للخروج من الدار وقمر ترافقه إلى الباب، قال مجاهد:

«هل تعلمين يا حبيبتي أني أفكر بجدية بدعوة رفاق المدرسة يوم افتتاح معرض أحمد، أظنها ستكون مناسبة رائعة لاجتماع الشمل بعد كل تلك السنين»

وقال بعد قبلة طبعها على خد قمر:

«ما أجمل أن يجتمع رفاق الصبا من جديد!»

فقالت قمر في وداعها عند الباب:

«سأكون سعيدة عندما أعرف شيئاً عن ماضيك، وقد يكون لهذا اللقاء فرصة لي تكشف لي عن أيام الشقاوة»

وهتف مجاهد في سره:

«الشقاوة الساذجة!»

- ٦ -

جاءت التهنئة عبر الهاتف للمرة العاشرة بعد ظهر يوم طويل، وكان (سليم) يتلقاها بحياد وكأنها لا تحقق ما يصبو إليه وهو يحتل مقعده وراء المكتب الذي لم يمضِ على استخدامه له سوى سنوات قليلة، وبعد أن أنهى فترة التمرين لدى محام معروف في المدينة، فكان أن قدم له آنذاك خاله، الذي هو والد زوجته، غرفة من غرف مكتبه للاستيراد والتصدير ليمارس فيها عمل المحاماة.

كانت التهنئة الأولى تحمل الخبر إلى سليم ليشبع الرضا عنده فاندفع إلى خاله وموظفيه يبشرهم بالنبأ. وقبل أن تأتي التهنئة الثانية جعل يقلب الأمر من على كرسيه الدوار ينوس به.

«مدير عام لشركة الغزل والنسيج»

«إذن فهذا ما تستحقه يا سليم !»

كان سليم قد اشتهر بالآراء الناقدة يطلقها في الاجتماعات الحزبية، فلم يكن ليقنع بمنصب كهـذا. وعندما جاءت التهنئة الثانية من قيادة الحزب في المدينة وقد تعاقب أعضاؤها على المباركة، أحسَّ من لهجة البعض منهم رنّة شماتة وهي ترسم له الحدود التي سيقيد بها. واستمر في نوَسانه على الكرسي الذي كاد أن يصبح عصبياً فيقلب الأسئلة المتكاثرة على روحه:

«أي ثمن رخيص لمناضل مخلص مثلي في الحزب؟»

«ما تفسير أن تحجب عني المناصب التي توزع بإسراف على مرتزقي الحزب!»

«محافظ، سفير على الأقل ؟»

ومع تواتر التهاني التي أمطرته في أقل من ساعة، تصاعد تفكير المحامي سليم في خلفية هذه الوظيفة التي وُضع فيها. هل جاءت انتصاراً لخصومه في الحزب، أو أن بعض المهنئين كان يغطي بالكلام المعسول على شماتة مسمومة. وكان سليم قد برز في الفترة الأخيرة مقاتلاً يعلو صوته في اجتماعات الحزب المغلقة وفي الندوات الجماهيرية وفي نقابة المحامين وكان بين أعضاء مجلس إدارته الأصغر سناً، وتحول إلى مشاغب يثير من حوله الآراء المتناقضة.

كانت سنوات الدراسة في كلية الحقوق ومن بعدها ممارسة المحاماة، قد شغلته عن رفاق الثانوية فلم يلتقِ بأحد منهم، وكانت المصادفات النادرة تكشف له عن شيء من أخبارهم، فيعلم مثلاً أن حامد أصبح شيخاً مرموقاً ويؤثر في قطاع شعبي من المدينة القديمة، كما أن هايل يعمل طبيباً في مستوصف خيري، ولم يدقق في الأنباء التي دارت حول تركي، فكأنه لا يصدق منها شيئاً.

وفي مساء يوم التهاني ذلك استقبلته (أم الخير) زوجته بالزغاريد بفخر من بات حرم المدير العام. وجعلت أم الخير تدور حوله بالبخور وهو ساكن لا يريد أن يفصح عما بداخله. قالت أنها قضت يومها في تلقي المباركات من الأهل والمعارف والجيران، وتشكر الله على تحقيق أمنيتها أن يكون بيتهم هو الأهم في العمارة بل في الحي كله، وحملت إلى زوجها الولدين الصغيرين تطلب منهما أن يقبّلا المدير العام، فاكتفى سليم بحملهما إلى غرفتهما. وكان مازال يحتفظ بصمته لا يعلق على هياج أم الخير بكلمة، وفيما الزوجة تساعد في استلام الملابس التي يخلعها سليم كالعادة، كانت تعرب عن سعادتها بالقول:

«منذ بداية زواجنا وأنا أنتظر مثل هذه اللحظة. الآن سيكون لنا سيارة حكومية تخصنا وسائق بلباس رسمي، وسنحرق قلوب الحاسدين»

كان سليم يسيطر على ضيقه الدفين وهو يرتدي البيجاما، فاحتضنته زوجته من ظهره وهي تتمتم بنشوة أن عشاء الاحتفال الذي أعدته يليق بالمناسبة، وستكون ليلة لا ككل الليالي.

«روب النوم الذي تحب شفافيته لم ألبسه من يوم زواجنا. سألبسه لك اليوم» وأضافت أم الخير وهي تقود زوجها إلى الصالة بانتظار وليمة العشاء:

«أعتقد أن منصبك الجديد يستحق ملابس خاصة».

وبالرغم من أن الخال لم يبخل يوماً في تقديم العون لابنته، إلا أن المنصب الجديد الذي سيتولاه سليم منذ الغد سيسمح له أن يرد الدين. الخير قادم، وقالت الزوجة من بعيد:

«أعلم الآن لِمَ أعطاني أهلي اسم أم الخير».

وبينما تنشغل الزوجة بالأولاد، لتدخل المطبخ بعد ذلك، جعل سليم يقلب الرفوف في الخزانة المزدحمة بأوراق قديمة وإضبارات وكراسات في محاولة لتمضية الوقت في فعل شيء ما، وكان يعلم أن اقتحامه للخزانة لم يكن له معنى فإذا به يقع على مصنف يكشف داخله عن دفتر مدرسي قديم، فجعل يقلب صفحاته التي كانت أشبه بألبوم بدائي وكان بعضها قد ألصقت به صور فوتوغرافية، وكان معظمها على علاقة بمرحلة الدراسة الثانوية، أساتذة وطلاب، الرفاق السبعة حامد وأحمد وهايل وتركي ومجاهد وسليم ورشيد، وصورة لباب الشعبة الثانية من الصف الذي درس فيه الرفاق، وأخرى في ملعب كرة القدم، وأمام البوابة الحديدية للمدرسة، وداخل جموع واحدة من

المظاهرات، وعند مدخل البناء الرئيس، وعلى أطراف حلبة الملاكمة الصغيرة. وتبين لسليم أن رفيقه مجاهد الذي لم يسمع كلمة عنه منذ الاحتفال بنتائج البكالوريا، كان غائباً عن معظم الصور لأنه كان المالك الوحيد للكاميرا بين الرفاق وربما بين كافة الطلاب.

وقف سليم طويلاً عند صورة التقطها مجاهد لمجموعة من طالبات المدرسة المجاورة وهن خارجات من بابها. خمسة حمامات في لحظة افتراق وكل واحدة تذهب في اتجاه، وكن كسرب تفرقه الاتجاهات المختلفة، وإذا ما أمعن النظر في الصورة تأكد له أن واحدة من الفتيات كانت فضيلة. نعم إنها فضيلة.

«أراهن على أنها فضيلة، فمن كان يملك مثل قوامها!»

فضيلة الآن تتصدر سيل الذكريات، فإذا بالماضي يغزو شاشة المخيلة. الصبية الأكثر رشاقة بين الطالبات، بل النساء جميعاً. فضيلة تحضر أمامه وتغيب، تظهر وتختفي، كما كان الأمر أيام التقلب على فراش السهد والحرقة فيظل ساعات طويلة يفكر بالصبية الجميلية الرائعة. الأنثى الوحيدة التي تسكن عقله وجسده فيلاحق خيالها في الأفلام التي يشاهدها والصفحات التي يقرأ فيها. صبية واحدة فجرت فيه كتابة الرسائل التي لن تصل إليها لأنها كانت حبيسة جرّة الأسرار.

«أكان علي أن أحرق الرسائل؟»

وقد شهد اليوم الذي سبق زواجه من أم الخير حفلة تمزيق وإشعال النار في القصاصات التي سجلت قصة الحب الخفية. وكان إغراء المساعدة التي وعد بها الخال هو الذي عجل بالزواج من أم الخير. ليسدل على الماضي ستار النسيان. واليوم يفتح الستار دون إنذار مسبق.

صباح اليوم التالي طُرِق الباب ليُطل شاب قدّم نفسه على أنه سائق المدير العام:

«أنا سائقك يا أستاذ»

واكتشف سليم بعد لحظات أن السائق لم يكن سوى المجند الذي لازمه فترة أيام الخدمة العسكرية الاحتياطية، إلا أنه التزم الوقار وطلب من السائق أن ينتظره. في الشارع الضيق الذي أطل سكانه على المرسيدس التي سدت المدخل، فكانت العيون من على الشرفات تراقب الجار سليم وهو يتهادى ماشياً باتجاه سيارته فيتصدرها وهي ترسل هديراً لحظة الإقلاع. وابتدأت في الطريق ذكريات الليلة السابقة تتنزل على سليم كرذاذ خفيف. في الفراش لم تكن أم الخير هي التي تتقلب ككتلة اللحم على مشواة، بل كانت فضيلة هي التي تملأ السرير بحيوية جنونية وتذيب عظامه بالدفء الذي تشع به. كان لا يريد أن يفتح عينيه كيلا تفلت منه متعة انفجرت في كل جزء من جسده، واختفت في تلك الليلة آثار الخيبة التي لازمته منذ صدور قرار تعيينه في الشركة، وباتت فضيلة بلسماً يمسح على الجراح.

لم يحاول سليم أن يجري أي حديث مع السائق الذي كانت عيناه تلمعان في المرآة وكأنه يريد أن يقول أنا هو الجندي الذي لازمك فهل مازلت تذكر. ويبدو أن المدير العام ابتدأ مبكراً في أن يحل محل سليم الذي شارك المجند صحنه ذات يوم. وفي ساحة الشركة ارتفعت لافتات حملها العمال بقيادة الفرقة الحزبية للترحيب بالمدير الجديد. كانت الخطب المتتابعة تثقب أذنيه إلا أنها تعمل على مسح الخيبة من روح سليم، نبالة تخبو ليبتدئ المدير العام في التألق مع حرارة الهتاف بحياة الحزب والقيادة الجديدة للشركة.

- ٧ -

انطلقت أخبار الحرب منذ الصباح الباكر لتزيد من توهج أشعة الشمس في ذلك اليوم الحزيراني. كان اليوم صيفياً محرقاً على غير عادة أيام الربيع، فلم يسمح الحر الذي احتل المدينة لأي عمل في الدوائر الحكومية، وقد زادت منه أخبار المذياع يستمع إليه المهندسون في (البلدية) وقد بدا مكتبهم آنذاك أشبه بندوة لعاطلين عن العمل.

وكان رشيد أكثر الحاضرين تدخيناً فهو لا ينتهي من فنجان القهوة التي يعدها بنفسه للجميع حتى يملأه من جديد، ولا يتوقف أيضاً عن إرسال شتائم يصبها على إسرائيل وأمريكا، ولم يتوقف مع زملائه في العمل عن متابعة الأخبار التي تبثها الإذاعة مطعمة بالتقارير العسكرية حول الحرب في الجبهة مع إسرائيل المعتدية. ويهتف رشيد بين خبر مذاع وآخر بأن السلاح السوفيتي سيلقن آلة الحرب الصهيونية درساً لن تنساه، وقد انتفض غاضباً لسماع أحدهم يصف حرب ذلك اليوم بالخامس من حزيران، وأعلن بثقة المنتصر أن اسمها الحقيقي هو ساعة النهاية لسيطرة الأمبريالية العالمية على الشرق الأوسط.

هو يوم الراديو بامتياز. الأسماع تصغي إلى أقواله بفضول، ويتواصل الناس مع الأخبار التي كانت تبعث في النفوس فرحاً بالانتصار القادم، إلا أنه مع انتصاف النهار جعل المهندسون في المكتب ينفضون الواحد تلو الآخر مغادرين ليتوجهوا إلى سوق (باب جنين) القريب لتأمين احتياجات عائلاتهم الغذائية، وكانت قد وصلتهم أنباء عن هجوم كاسح على الأسواق يقوم به الخائفون من الحرب، إلا أن رشيد لم يكن أمامه من وجهة سوى المقهى لمتابعة الأخبار فيه.

رشيد يعيش وحيداً، فمنذ أيام الدراسة ومن بعدها كلية الهندسة ظل بعيداً عن أهله الذين لم يغادروا من قبل قريتهم الجبلية في الشمال، كما أنه فشل أكثر من مرة في العثور على زوجة تشاركه الغرفة الصغيرة التي رضيت به في حي (السريان) ليعيش أيامه الحلبية كواحد من أهله وقد اختلط فيه الأرمن بالأكراد وبقية الفقراء من أهل المدينة. وباتت حياة رشيد متشابهة وهي تتوزع بين البلدية ومقهى (القصر) من طرف والاجتماعات الحزبية من طرف آخر.

وفي مساء اليوم الأول من الحرب جلس رشيد على طرف فراش السرير الحديدي محتضناً الترانسيستور وهو يبث الأغاني الوطنية، وكان يفكر بتأمل هادئ في أمور كثيرة كانت أيام عمره فيها هي الغالبة. هو يخرج من سن الثلاثين ببطء السنوات المملة. لا جديد في خط سيره اليومي من وكر الذئب الذي يسميه أحياناً بيتاً متوجهاً إلى مبنى البلدية الذي أطلق عليه لقب الخزانة التي تحتفظ بالراتب الذي يحصل عليه في نهاية الشهر، لتنتهي الرحلة عند طاولة المقهى. ورشيد لا يشعر بالحرارة إلا في اجتماعات الحزب المتنقلة بين الدور القديمة والتي تتكرر فيها الأفكار والشعارات، إلا أنها مع ذلك تشعل فيه حماسة تعوضه عن الخواء في المكتب والبرودة في الوكر. وكانت الصور والأفيشات تغطي معظم مساحة جدران الغرفة، إلا أن لوحتي (لينين) و(ماو) لم تكسرا صمت الوكر الذي يسكنه بأكثر مما يفعل هو فلا يملك سوى تأمل الصورتين الكبيرتين لا تنطقان بالرغم من محاولات مستمرة لإجراء حديث معهما، فيكون هو دوماً السائل والمجيب. سرير وخزانة ومكتب خشبي يستخدم للقراءة والطعام، ومطبخ متعدد الفوائد فهو الحمام أيضاً والمرحاض والبوتاغاز بعين واحدة، وهكذا اعتاد رشيد تفاصيل وكره وكأنه يلتزم باتفاقه المزمن معه.

ومنحه مساء يوم الحرب فرصة كي يفكر من جديد بموقعه كمهندس لا يعهد إليه أصلاً بأي عمل، وكانت تلك الحقيقة قد باتت واضحة منذ البداية بعد أن علمت الإدارة أنه عضو في الحزب الشيوعي، إذن فهو لغم يهدد بالانفجار في أية لحظة، وأن إبعاده عن المسؤولية سيحفظ للبلدية هيبتها ويبعد الخطر عن كبار المسؤولين فيها.

ومع اقتراب فترة الفجر لم يتوقف رشيد عن دفع إبرة الراديو للتنقل بين مواقع المحطات يلاحق أخبار الحرب عبرها، وكان مستلقياً على فراشه وقد غلبه النعاس أخيراً فأغفى، كان اليوم طويلاً فلم يستطع مقاومة تعبه وأحداثه المثيرة وكأن شهوراً قد تجمعت في يوم الخامس من حزيران الاستثنائي كصخرة سقطت على الجسد المنهك، ومازالت تسقط.

هي الأحلام تتسارع لاحتلال عالم رشيد المختبئ في كهف روحه. طفت الأحلام على وجه البحر المترامي الأطراف كالزبد المتماوج عند شواطئه. بدأت وجوه رفاق المدرسة تظهر على السطح فلا يحجبها الزبد، فتراها عيون رشيد المنتشرة في رأسه، وتدعوه الوجوه كي ينعم بالماء المتلاطم عليها كصفعات المداعبة. سمع الوجوه ترسل الهمهمات التي لم يلتقط منها سوى تحية الصداقة. وفجأة انطلق الرفاق كأسهم تطير لتحط على الشاطئ. وفجأة رآها كما كانت، شاهد فضيلة تخرج من البحر كحورية لتستقر على صخرة، فتذوّق الماء بكفِّـه ليعرف أن فضيلة قد جعلت من ملوحة البحر عذوبة تروي الظمأ التاريخي بعطش لذيذ. هاهي فضيلة عارية إلا من جلدها تغسله قطرات اللؤلؤ اللامعة كنجوم تشد البصر إليها فلا يبقى من الظلمة المحيطة سوى بَهْـر الهالة المنيرة وهي تحتوي الصبية فتتحول إلى مصدر لنور الفضاء.

«فضيلة.. فضيلة، أيتها المستحيل»

واستيقظ رشيد، استوى جالساً في سريره كمن لسعه عقرب، كان يحدق في العتمة الشفيفة وقد ابتدأ ضوء أول النهار بالتسلل متهادياً إلى الغرفة. هو يتلمس العرق الذي ينضح به وجهــه، ولا يلبث أن يهتف بشيء من الخوف:

«يا للهول، فالماضي لا يريد أن يختفي»

وصرخ من مكانه كمقيد بسلاسل لا تسمح له بأية حركة:

«لا أريد أن أكون عبداً للماضي»

وبعد قليل استطاع أن يغادر الفراش. دار في الغرفة وهو يتحاشى الاصطدام بشيء فيها. جعل يردد في سره:

«ألم يضع هذا الزمن العجيب حداً لجنون المراهقة ؟»

وإذا ما نور الصباح ملأ زوايا المكان، كان رشيد يتمتم:

«أهي المراهقة تعاود الهجوم، وكأني لست مشغولاً بما هو أهم وأخطر؟»

وتساءل في سره مع إرسال حلقات الدخان من سيجارته في الفضاء الضيق:

«ألم تكن الصبية المذهلة ذات يوم قضيتي الكبرى ؟»

مرت الأيام من قبل وهي تصنع الفصول والسنين، فكانت بتعاقبها تقصم ظهر العبث والأحلام الصغيرة. فرقت الرفاق في شعاب الحياة فكانوا يضربون بخطواتهم في كل اتجاه، وكأن المدينة بل الجغرافيا نفسها تيه لا حدود له، وقد حدث هذا بالرغم من أن حلب مازالت راسية في الميناء لا تتزحزح وكأنها لا تعرف سوى الاستقرار.

«ما السر في هذه الحياة لا يبقى منها سوى المتاهة ؟»

«ماذا حدث لك يا رشيد. ماذا حدث للذكريات ؟»

ومع اكتمال حضور الصباح بكامل استعداده، كان رشيد يتوجه إلى العمل واضعاً نهاية لأسئلته.

ومن جديد امتلأت غرفة المكتب في البلدية بأخبار الحرب، إلا أن وقائع اليوم الثاني حملت بوادر إنذار بأن شيئاً كالخسارة يلوح في أفق الأحداث التي جعلت في الأيام القادمة تتحول إلى كلمة قاسية هي النكسة. كان مصطلح النكسة قد ردده مهندس منذ اليوم الثاني، وتناقلته في الأيام التالية بقية الشفاه الجافة. فكأن تداول الكلمة المستحدثة كالخيبة يشربها الجميع هي السم المقدر له أن يميت الأمل في النفوس. ومع تعاقب الأيام احتل الهدوء الصامت مكانه بين جماعة المكتب، فكان الواحد منهم يلتزمه خوف الانجراف بكلمة منه تنكأ الجراح.

بعد فترة من زمن الذهول، أراد رشيد أن يتحدث مع زملاء المكتب أو في اجتماع الحزب عن ضرورة استعادة الثقة لتجاوز الضربة التي صفعت البلاد، إلا أن الأجواء كانت تستمتع بالكآبة التي لا تسمح بتعليق أو تنظير، فكان يعزي نفسه بأقوال يرددها لنفسه:

«الليل يعقبه نهار. تاريخ الأمم مليء بالهزائم ولكنه يحتفظ لنفسه دوماً ببذور التطلع إلى حل يحمل الأمل».

وتحول رشيد إلى التفكير جاداً بالاستقالة من البلدية التي لم ترحب به يوماً، وقاده ذلك الأمر إلى البحث عن طريقة للهجرة والعمل خارج البلاد عله يُكوِّن نفسه فيجمع مالاً يستطيع به أن يبني أسرة. وابتدأت اتصالاته بمعارف له في الخليج، وقد دهش للرد الذي وصله سريعاً وهو يحمل عقداً مع شركة خاصة تعمل في الكويت. حزم أمره ليطير بحثاً عن بداية جديدة متناسياً كل ما له علاقة بالبلد والذكريات والنضال.

- ٨ -

اتخذت إدارة مدرسة (المأمون)، وهو الاسم الجديد لثانوية التجهيز الأولى، قراراً غير مسبوق في تاريخها الطويل، واتفق على أن تشهد بداية العام الدراسي القادم احتفالاً كبيراً، وقد وسمته الصحافة بأنه سيكون تاريخياً، فيشارك فيه أهم الخريجين من طلابها على مر السنين. وسيتم اختيارهم من الذين كانوا أو مازالوا في مواقع قيادية، سياسية كانت أو اقتصادية، اجتماعية أو عسكرية. وبالرغم من استمرار سيطرة آثار النكسة الحزيرانية منذ أشهر، فإنها لم تثنِ عزم الإدارة عن إحصاء أسماء الذين تلقوا العلم في (السلطاني)، ثم (التجهيز الأولى)، فالمأمون أخيراً، فكان عدد كبير منهم قد احتل مواقع بارزة ليس في مدينة حلب فحسب بل في سورية كلها.

كانت (السلطاني) مع (مكتب عنبر) في دمشق هما الثانويتان الوحيدتان في البلاد، وقد شهدت مدرسة حلب في العقود الأخيرة عشرات الأحداث الكبرى وآلاف الطلاب، وكان من يحصل سابقاً على شهادة البكالوريا فيها ينظر إليه بين أهله ومعارفه على أنه صاحب امتياز حقيقي.

ودلت الأسماء التي تم اختيارها من أرشيف المدرسة على أن أصحابها احتلوا، في المجتمع والدولة على حد سواء، مناصب كبيرة وقيادية مختلفة، وبرز بعضهم في مجال الفنون والآداب وفروع ثقافية أخرى، وتم توجيه الدعوة إلى الأحياء منهم لتصدُّر الاحتفال الكبير.

وكان ذلك اليوم علامة في تاريخ المدرسة والمدينة، وبالرغم من توافد العشرات من المكرمين إلى قاعة المدرسة، فإن واحداً من الرفاق

السبعة لم يكن من بينهم فكانوا مع آلاف الطلاب السابقين من فئة المنسيين. وعلق الشيخ حامد بحر العلوم على الحدث بقوله أن لا خير في مدرسة نسيت في تكريم كهذا أن تدعو إليه قيادات المدينة الدينية، لذا فهو لن يعير اهتماماً لذاك التجاهل. وقال يكفيه فخراً أن آلافاً من التابعين له يقدرون الشيخ حامد بحر العلوم. وحدّث مريدين له في الموضوع الذي أثار غضبه قائلاً:

«ليس بعيداً ذلك اليوم الذي ستلجأ فيه الحكومة إلي كقوة طالبة أن أقود الناس إلى ما فيه الخير والصلاح»

ويبدو أن نكسة حزيران كان لها دور في ازدياد أنصار الشيخ حامد، وتضاعف أرقامهم عما كانوا عليه أيام الشيخ عصفور الجنة. وكان لتلك الأيام الستة وقع الحمى على الأعمار المختلفة في توجهها إلى اقتناء الكتب الدينية من تفاسير وابتهالات وأدعية وسير القدماء من الأولياء والصالحين، وبات الالتحاق بالجوامع والزوايا وحلقات الذكر وسيلة للبحث عن ملجأ يحتمون به من قسوة الأيام. وعملت خطب الشيخ حامد وغيره من قادة الزوايا والطرق على الكشف عن ضلال البشر في ابتعادهم عن التمسك بأهداب الدين الحنيف مما جعل البلاد تتلقى العقوبة الإلهية، وكانت حرب حزيران نموذجاً لها، وهكذا انكشف الغطاء عن الطمأنينة التي لن يستردها الضائعون إلا بالعودة إلى جادة الحق والصواب.

لقد حفلت المكتبات بنشاط ملحوظ في توزيع منشورات التراث بأنواعها المختلفة، وسجلت معارض الكتاب المتواترة أرقاماً هائلة في بيع

ذاك النوع من المطبوعات. وكان اهتمام قلة من القراء ينصب على اقتناء الكتب التي تتعلق بتاريخ العرب وكذلك سوريا، وكأن رغبة البحث عن أسباب خسارة الحرب كانت تعادل أو تساوي إنشاء دولة إسرائيل بقرار دولي وكأن العالم بأسره يقف بشماتة من العرب ليقول لهم قد حان الوقت للاعتراف بضعفكم وتمزقكم. وكان ثمة سؤال يلح على من حفرت النكسة شرخاً في روحه، ولا يتجاوز الكلمة الواحدة:

«وبعدين ؟»

نهر الحياة تتلاطم مياهه ولكنه لا يتوقف

-١-

رحلت زوجة الشيخ حامد عن الدنيا قبل أن تكمل سنتها الأولى من العيش في كنف الشيخ. لم تنفع الأدعية والقراءات التي قام بها الأتباع في رحاب الزاوية، فكانت الليالي الثلاث مكرسة لشفاء الزوجة، كما كانت التمائم التي ينثرها الشيخ على المريضة، كأزهار سحرية تكلل فراشها، تتواصل في تلك الليالي. وبالرغم من توافد الأطباء على الدار فإن جهودهم توقفت بينما الزوجة تمضي مبتعدة وقد حرمت في الساعات الأخيرة من تملّي وجه زوجها الذي أحبته فأدخلها جنة السعادة، وكانت غيبوبتها تمهد لها الطريق إلى دار الآخرة.

لم تكمل الزوجة العشرين من عمرها، وكان شيخ تجار (السويقة) قد قدم ابنته هدية للشيخ حامد تقرباً منه، فبات مباركاً بين أهل السوق لقرابته المميزة من الشيخ حامد نهر العلوم، ثم حُمَّ القدر وانتقلت الابنة إلى جوار ربها دون أن يكون لها ولد يظل الرابط بين أهلها وزوجها، فكانت فاجعة الموت تعادل ضياع الصلة المباركة بشيخ جليل.

كان فقدان الزوجة المطيعة قد حدث عقب الاجتماع الكبير للمريدين والأتباع للتأكيد من جديد على لقب (نهر العلوم) الذي ألصق بالشيخ حامد. أجمع الكل على أن معرفة الشيخ بشؤون الدين والدنيا، وقدرته على إصدار

الأحكام القاطعة وهو ينظر في الخلافات المالية والعائلية للناس، وشروحه اللامعة لقضايا امتدت ما بين الشريعة والحياة اليومية للناس، قد دعت إلى التأكيد على اللقب السابق الذي لم يتم تداوله كما يجب أن يكون عقب الإعلان عنه في جنازة الشيخ عصفور. وهكذا التصق اسم (نهر العلوم) بالشيخ بدلاً من (الجنة)، وكأن عصفور الجنة أدخل في خزانة النسيان بعد أن غطت على ذكراه حيوية الابن وسحر حضوره.

وقام الشيخ حامد مع توالي الأيام على تنظيم مواعيد محددة يستقبل فيها وفود الرجال والنساء ممن يعانون المشاكل، زوجية كانت أو غيرها، فكان يستمع إليها فيقدم النصح والحلول لتلقى الرضى في كل أحوالها. وأدت آراؤه وأدعيته إلى إدخال الطمأنينة إلى القلوب المضطربة، لذا فقد كانت شهرته لا تتوقف عن الانتشار بين الناس يقصدونه في السر ليتلقوا بركته ودعمه الروحي، وسمحت علاقاته الواسعة بالتدخل في أمور كثيرة رحب بها أهل الحكم والاقتصاد.

وابتدأت بعد مراسم العزاء الهمهمة بين المقربين من الشيخ وهي تحمل إشارات إلى ضرورة وجود زوجة في منزل الشيخ ترعى شؤونه وتليق برجولته الشابة. تكاثرت عروض الأتباع والمريدين تقترح عليه الصبايا اللواتي تخصهم أو أنهم يدلون عليها، فكان ضغط المحبين يدفعه إلى التفكير بجدية الأمر فما تلبث المشاغل أن تبعده عنه.

وذات ليلة حدث أن ألقى الشيخ حامد نظرة على فاطمة، ليكتشف فجأة أنها باتت صبية حقيقية يملأ جسدها الثوب القطني ليهتز نهداها الصغيران من تحت القماش الناعم وهي تقدم له طبق الفاكهة المفضل عنده قبل أن يمضي إلى السرير. وضعت الطبق أمامه وتراجعت وهي تلقي عليه تحية المساء، فتساءل حامد على غير عادته:

«ما عمرك الآن يا فاطمة ؟»

ردت بحياء وهي تسبل عينيها السوداوين كفحم مضيء:

«ربما أنني اقتربت من العشرين، بل أقل،. أعترف أني لا أعرف يا ابن عمي»

فقال الشيخ معاتباً:

«هل نسيت اسمي يا فتاة ؟»

فهتفت باعتزاز عبَّر عن فخرها الدفين:

«الشيخ حامد نهر العلوم»

آنذاك قال مصححاً :

«حامد ابن العم. هل تنسين اسم حامد ؟»

ودفعها تبسطه الجديد في الكلام إلى التراجع خطوة، وما لبثت أن ارتدت خارجة وكأنها تدرك أن الرجل ما عاد هو كما عشقته منذ طفولتها، أصبح رجلاً ينظر إليها كامرأة. وكان الشيخ حامد يتابع خطواتها الهاربة وقد ضاق الثوب بردفيها، فهاجت بداخله عواطف لم يعرف مثلها من قبل. وقد أيقظت الكلمات القليلة للشيخ شيطان الرغبة في جسد فاطمة، والتي قضت سنواتها الأخيرة في صراع معها، فهي تريد أن تدفنها دوماً خوف اكتشافها في تصرف واحد يمثل فيها الرغبة الجامحة بحامد. هي في لياليها المعذبة تتخيله مندساً في فراشها، يلتف عليها وتغرق فيه وكأنهما موجتان متداخلتان لا يُعرف أيهما ابتلعت الأخرى. شفتاه تلامسان حلمة ثديها التي تصبح كحبات الشعير التي أغرمت بزراعته في أصيص لتراقب إنتاشها ونموها. كان حامد هو الرطوبة التي تدفع الشعير إلى التفتح. كان هو المستحيل الذي ارتبطت به.

ومضت مسرعة. فاطمة تلجأ إلى غرفتها في الطابق الأرضي، ولم تكن تملك من أمرها سوى الاحتماء باللحاف تخفي تحته انفعالها ودموعها

«حامد ابن العم»

هكذا كان قوله لها، وهذا ما تسمعه منه لأول مرة. فهل كان في قوله إشارة معينة أم أنها المصادفة، أم أن سمعها يفسر الكلام على هواه ؟

«حامد. يقول لي أن أناديه باسمه !»

تتنازعتها الأوهام كريشة في نفق تأتيه الريح من طرفيه. ارتجفت من خوف وشوق، فما لبثت أن دفنت وجهها في المخدة تحاول أن تسكت ضوضاء الاضطراب التي زعزعت كيانها.

وكانت فاطمة تشكل مع أخريتين ثلاثياً نسائياً يقيم في الدار. (عيشة) التي شاركت ذات يوم في إرضاع حامد الصغير لتكون أماً ثانية له، وهاهي تعود من جديد لتقوم على خدمته. (زنوب) القريبة للشيخ عصفور، استقبلها الشيخ حامد بعد ترملها. ثلاث نساء بتن يتسابقن على خدمة الشيخ الذي وهب نفسه لله، فما كان على الواحدة منهن إلا أن ترضي الله في نيل رضى الشيخ حامد، وأضافت فاطمة على ذلك حلمها الخفي في أن يحبها حامد، وقوي الحلم مع رحيل زوجته. ولعب شباب فاطمة، من دون المرأتين اللتين كانتا في مقام الأم لها، مع استمرارها في تقديم الطعام والخدمات الخاصة، دوراً في تميزها، فكانت هي المسؤولة عن ملابسه ترتبها بعد غسلها وكيِّها في الصندوق الخشبي الذي كان يخص أمه من قبل، وهي التي توزع بين طياتها ألواح الصابون المعطر، وهي التي ترش سريره بماء الورد، وتمسح الغبار عن الخزانة الكبيرة التي تشعبت في خشبها أغصان الشجر وثمارها فكانت تحفة فنية أرادت فاطمة أن تكون لامعة أبداً. وظلت هي أول من يكون في وداع الشيخ وفي استقباله، وكانت في غيابه

تقلب صفحات الكتب التي يحتفظ بها في غرفة نومه لتقرأ فيها بعد أن زرع الشيخ عصفور الجنة الخطوات الأولى في تعلم القراءة، وكأنها تجد وسيلة لمشاركة الشيخ حامد في كلمات الصفحات، وكذلك تفعل عندما تفتح القرآن الذي يخصه لتقبل الصفحة التي يطل منها بوجهه السمح، فتباركها الكلمات المقدسة التي تشكل مع الأيام رابطاً يجمع بين الاثنين على تلاوتها.

في البداية كانت أُخوَّة حامد هي الطاغية، ومع تفتح براعم الأنوثة أصبحت رجولته القطب الذي تنجذب إليه بلا توقف. ويوم دخلت الدار تلك العروس الغريبة ظلت فاطمة تعاني من مغص في معدتها يهاجمها لحظة تقع عينها على المرأة المتباهية، فتكابد ألمها بالصبر وأحياناً بشرب (الميرمية) أو (البابونج). وبرحيل العروس داهمها شعور بالسعادة فأخفته مع سرها، وكانت بالصمت الحزين أحياناً وبدموع تغرق عينيها تعلن عن الوفاء لأحزان الشيخ حامد. ولم تستطع فاطمة أحياناً أن توقف لومها لمشاعر الفرح التي لازمتها منذ موت الزوجة والتي كانت خيانة للشيخ حامد، فتلجأ إلى الاستغفار، ولكنها لا تلبث أن تعود إلى طبيعة المرأة فيها.

«هل من شريعة تحرمها من حق التفكير بالحبيب حامد»

ويمسح ذلك التساؤل حدة اللوم لموقفها، فتتعلق من جديد بالحلم الذي يملك عليها الرغبة والأحاسيس المتوقدة.

«ألست مؤهلة لأن أكون شريكة حامد في فراشه، فأقابل بركته بدفء جسدي المشتعل أبداً بالشوق إليه ؟»

وفي مساء ذلك اليوم الغريب، عاد الشيخ مبكراً فرافقته فاطمة من باب الدار إلى غرفة الضيوف التي توجه إليها على غير عادته. استقر على الأريكة، وكانت أحواله لا تبشر بالطمأنينة، فانغلاق وجهه لم يفارقه وهو يطيل النظر

إلى فاطمة التي انتصبت أمامه واقفة بانتظار أن يطلب شيئاً لتلبيه،وكانت نظراته توحي بأنه سيقول أمراً غير مألوف أو أنه سينطلق بلوم أو شكوى لا تحسن تقديرهما. لم يكن على طبيعته فأثار المخاوف، إلا أنها وقفت تنتظر كلمة أو إشارة. هتفت فاطمة بصوت خفيض في محاولة لكسر الصمت:

«ابن عمي الشيخ حامد لا يبدو اليوم في حال جيد»

فغمرها الشيخ بنظرات فاحصة استمرت طويلاً ليرتعش قلبها وترتجف شفتاها، ووجدت فاطمة نفسها تحكم غطاء الرأس الأبيض على شعرها وتطرق بانتظار أن تسمع شيئاً. قال الشيخ آمراً بهدوء مثير:

«اتخذي لنفسك مقعداً يا فاطمة»

فأثار ترددها في الاستجابة حزم الشيخ الذي ظهر في يده تشير لها أن تجلس ففعلت. كان مقعدها بعيداً وهي تجلس على طرفه بخجل عبرت عنه ببصرها وهو يلتصق بالسجادة العجمية التي مازالت تذكر ذلك اليوم الذي أهديت فيه للشيخ عصفور. وانطلق الشيخ حامد بودٍّ وهو يراقب تعلقها بالسجادة:

«أما زلت تذكرينها يا فاطمة. إنها من رائحة الشيخ عصفور رحمه الله»

وأضاف بعد صمت قصير:

«إنها التي جمعت أهل الدار مع زوارها، وكنت في العاشرة من عمرك»

واعتدل في جلسته بعد أن خلع العمامة ليقول :

«لن أنسى يا فاطمة فرحتك بألوان السجادة ونعومتها. هل تذكرين ؟»

فأومأت الفتاة برأسها موافقة بينما تكتم صرخة كادت أن تخرج منها، وتهتف في داخلها:

«مازلت أذكر كل لحظة في حياتي معك. ألا تسمع ؟»

وكان الصمت الذي يخيم في تلك اللحظات يثير قلق الشيخ حامد نفسه، إلا أنه اتخذ قراراً في وضع حد له فقال متحاشياً توتره:

«الحاج أحمد. أعلم أنك لا تعرفين شيئاً عنه. قابلني اليوم الشيخ أحمد بائع العطور بعد صلاة العصر»

ثم عاد إلى الصمت يريد أن يستعيد تنظيم أفكاره. وبعد لحظات قال إن الحاج أحمد طلب مني يدك يا فاطمة. هو يريدك زوجة لابنه، وهو شاب مؤمن ومجتهد. هو اليد اليمنى لوالده في إدارة الأعمال الواسعة. وأطال الشيخ حامد تأمله لفاطمة التي لم تتحرك خلجة في وجهها وكأنها تحولت إلى تمثال. وعاود الشيخ سؤاله الحديدي:

«ماذا تقولين في ذلك يا فاطمة ؟»

«ماذا أقول يا شريك العمر. ماذا تقول أنت في دخيل يريد أن يفرق بين حامد وفاطمة ؟»

كان الهواء في المكان ينعقد غيوماً متلبدة بسواد قاتم، وسرى في الجو تيار صاعق دفع فاطمة إلى الوقوف. انتصبت قامتها، وكسهم انطلقت باتجاه الشيخ. وجدت نفسها تقطع المسافة إليه بخطوات منفعلة فلا تلبث أن ترمي بجسدها عند قدمي الشيخ حامد لتمسك بكفه تقبله وتبلله بدموع حارقة، وكانت تهتف بتوسل:

«أتوسل إليك يا شيخ حامد. وبحق الشيخ عصفور علينا، لا تبعدني عن الدار. بحق الأب الذي رعاك ورعاني لا تخرجني من رحمة هذا البيت الذي لمَّني وآواني. هذه الدار المباركة هي بلدي وأسرتي ومستقبلي»

وقالت تخنق الدموع كلماتها:

«أبقى خادمة لك كل عمري»

الدموع تبلل الكف التي سيسحبها الشيخ وهو يمسح بها على رأس فاطمة برفق وهو يحاول أن يوقف بكاء الصبية وفزعها التي نضح جسدها بالارتعاش وهو ينتقل إلى ساق الشيخ التي تحولت إلى وسادة من حنان.

وهبّت فاطمة واقفة وهي تمسح دموعها بغطاء رأسها، قالت بضعف:

«اغفر لي انفعالي، فقد تجاوزت يا شيخ حامد حدودي»

وما لبثت أن تراجعت بخطوات بطيئة لتقف عند مقعدها، وكانت كلمات الشيخ ترافقها:

«لن أكرهك على شيء يا فاطمة. ليطمئن قلبك فأنا معك»

فدفعها قوله إلى الارتخاء مستسلمة للمقعد الذي تحول إلى حضن عطوف. وكانت تهمس بصوت مسموع:

«لا أطلب من الله سوى أن يبقيني في دارك»

وعاد الصمت شريكاً ثالثاً، وكان في تلك اللحظات كغيوم ندية ترش الاثنين بالراحة الدافئة. كان الشيخ حامد في تأمله للصبية يقول لنفسه:

«هذا ما كنت أريد أن أسمعه منك يا فاطمة»

بينما الصبية تردد في سرها:

«ليعينك الله يا فتاة»

بعد لحظات هبت واقفة لتأخذ الوضع المعتاد، وتسأل الشيخ متى يريد أن يجهز العشاء، إلا أن الرجل أشار إليها آمراً أن تعود إلى مقعدها، ففعلت بانتظار سماع شيء تجمع في وجهه شروعاً لقول جديد. بعد قليل جاء كلام الشيخ:

«لابد من قول شيء. يجب أن أقول شيئاً»

فانتفضت حواس فاطمة وهي تمنحه كل سمعها. قال الشيخ:

«أتساءل. نعم أتساءل إن كان الشرع يسمح لنا أن نعيش تحت سقف واحد»

وقالت في سرها:

«هو الشرع لابد من وجوده يا حبيب القلب»

وكان الشيخ حامد يتابع:

«كان لك الحق منذ زمن أن تكوني شريكة لرجل وفق سنة الله ورسوله»

فابتلعت فاطمة ريقها يغلي فيها انتظار شيء يكون أكثر وضوحاً لسمعها، لكن الشيخ قال بهدوء :

«أتوافقين على الزواج مني يا امرأة ؟»

وكانت تلك المرة الأولى التي تسمع فيها فاطمة لفظ امرأة على لسان الشيخ، فشهقت بتأثر وهي تقول :

«هذا أمر تملكه أنت يا سيدي. ما تقوله هو الأمر المطاع»

وكان تشديدها على كلمة (سيدي) غير مألوفة من قبل في الدار، وهاهي فاطمة تتلذذ بلفظها وكأن الكلمة تحمل من الوجوه ما يعجز الشيخ عن معرفة عددها. هتفت بحماسة :

«على بركة الله»

وكانت ليلة الجمعة قد جمعت عدداً مختاراً من المريدين شهدوا على قران شيخهم بفاطمة، وانشغلت عيشة وزنوب وأخوات الشيخ في تزيين العروس التي لم يخفِ فرحها الغامر شيئاً من خجلها الذي تورد في وجنتيها بهجة لا تماثلها أية امرأة تزف إلى رجل خرج من خانة المستحيل الذي ما عاد قائماً في الدار.

- ٢ -

وكما يحدث لأوراق اللعب في اختلاطها المحتمل بعضها ببعض، فيجتمع من غير قصد (الآس) مع (الختيار) لتلحق بهما بقية أوراق السلسلة فتشكل اللحظة الرابحة في لعبة غير محسوبة، كذلك هذا ما حدث للنقيب تركي الذي أصبح دون توقع المقدم تركي، ويكلف في الأسبوع نفسه رئيساً لفرع الأمن العسكري، فإذا به يجد نفسه الأشهر تسلقاً على سلم النجاح والمرشح ليكون من الأقوياء في حكم المدينة.

وتحول مكتب المقدم تركي في الأيام الأولى من تولي منصبه الجديد إلى مجمع يقصده المهنئون من أبرز رجالات الحزب وكبار المسؤولين في المراكز الحكومية ورؤوس الصناعة والأعمال مع وجهاء الأسواق وممثلي غرف التجارة والصناعة والزراعة، كما خصص أوقاتاً لوفود عدد من خطباء الجوامع ورجال الدين المسيحي. فكانت أيام المباركة المتعاقبة التي لم يشهد مثلها أي منصب حكومي آخر، إدارياً كان أو أمنياً، تحمل إشارات التأكيد على أهمية منصب من يجلس على قمة الأمن العسكري في المدينة.

وفي واحد من الاستقبالات تلك، حدث أن خرج رجل من بين المهنئين، وتقدم منحني الرأس نحو المقدم تركي الذي بدا بلباسه المدني الأنيق من خلف مكتبه المهيب كزعيم حقيقي، ولم يكن الرجل الذي عرفه الرئيس من أول نظرة سوى والد فضيلة، والذي استدعي ذات مرة إلى المكتب. وأعطى المقدم سمعه للرجل وقد بات قريباً منه، وكان يهمس في أذنه أنه مكلف من قبل الوفد بتقديم هدية متواضعة لسيادة المقدم ابن حلب البار، فارتسمت ابتسامة رضى على وجه المقدم وهو ينفث الدخان من سيجاره الكبير.

وقف المقدم تركي منتصب القامة، وتسلم علبة صغيرة من المخمل الأسود امتدت بها يد الوالد، بينما اشتعلت أكف الحاضرين بالتصفيق. فوجئ الجميع بالعلبة يضعها المقدم على سطح المكتب دون أن يفتحها. آنذاك قال والد فضيلة بعتب متودد:

«ألا يكشف سيادة الرئيس عن سر العلبة ؟»

فوجد المقدم نفسه مستجيباً لهمهمات الحضور وفتح العلبة والتقطت يده سلسلة ذهبية تحمل مفتاحاً لامعاً، قلبها متأملاً إياها، وفي لحظات أعادها إلى العلبة وكأن كبرياءه تمنعه من السؤال عن سرّ الهدية. قال الوالد متباهياً :

«هذا مفتاح البيت. بيتك يا سيدي الذي تطل منه على الحديقة العامة»

فلمعت عينا المقدم بدهشة سرعان ما أطفأها بحزم. قال رجل من المهنئين:

«خمسة غرف وصالون كبير. والدار تحتل الطابق كله في واحدة من أجمل عمارات حلب المشيدة في أجمل بقعة منها»

فاستمر المقدم تركي محافظاً على هدوئه لا يظهر عنه أي انفعال، بينما الرجل يتابع:

«إنها هدية وجهاء المدينة لكم يا سيدي»

وكانت مجموعة من كبار التجار والصناعيين قد كلفت سامي أبو خشبة بتمثيلها في تقديم الهدية، وهو الذي تباهى بأنه من المقربين إلى رئيس الأمن الجديد بعد زيارته السابقة إلى مكتبه فجعل من تلك المقابلة بطولة تغنى بها في كل مناسبة.

وشعر والد فضيلة أنه نجح في مهمته حتى تلك اللحظة فمال بجسده مقترباً من الرئيس وجعل يهمس بتأثر لوّن به كلماته:

«سأكون شاكراً يا سيدي لو استمعت إلى شكواي. أعطني من وقتك الثمين دقائق»

وكان الجمع قد بدأ بالانفضاض، فما كان من المقدم تركي إلا أن أومأ لسامي بالبقاء، وما هي إلا دقائق حتى وجد الوالد نفسه وحيداً مع الرئيس.

كان تركي في تلك اللحظات يستعرض حياته في الزريبة التي مازالت سكناً لأهله، ويقلب مستقبله المرتبط بالحي الشعبي الذي لا يليق برجل في مكانته، فيجد أن المفتاح الذهبي سيفتح له باب الخلاص، فتحول وقاره إلى ترحيب بالوالد الذي دعاه إلى قربه معطياً سمعه له.

«هأنذا أستمع إليك يا أخ سامي»

فاندفع والد فضيلة في الكلام الذي ابتدأه بالحديث عن دوزه الفعال في اختيار الدار المهداة والتي تليق بمكانته، فهي تقع في العمارة الأهم وسط حي الأكابر والطبيعة التي تسر العين. تدخل المقدم آنذاك وقد ارتسم الضيق على وجهه فقال:

«لنذهب إلى الشكوى مباشرة يا سيد سامي»

وكان للصرامة في القول دور في لجم اندفاع الوالد الذي راح يتكلم بتأن محاولاً أن تكون لكل كلمة منه أثرها على المقدم:

«دار أختك، ابنتي.. ابنتي الوحيدة فضيلة. دارها يا سيدي التي جهزت لاستقبالها في الزيارات القليلة إلى حلب. دارها يا سيادة المقدم، حقها الشرعي»

وتوقف الرجل مع تحول الرئيس إلى الانتباه الكامل لأقواله، ثم تابع:

«الدار كانت هي المهر الحقيقي. الدار مقابل مهر الزواج. دارها في حي المحافظة»

واستخدم الصمت لشد السمع إليه. كان يهيء نفسه لقول الجزء الأخطر من الشكوى، فجعل يقول بغضب مفتعل:

«لا أعلم يا سيدي كيف يمكن لأمر مثل هذا أن يحدث، ومتى، أفي ظل حكم العـدل؟ حكم العدالة والدفاع عن المظلومين!»

وأُخِذَ المقدم بانفعال الرجل فتساءل:

«أي أمر تتحدث عنه يا رجل ؟»

فجعل والد فضيلة يقول باستكانة مغلوب على أمره أن الظلم قد حدث منذ أسابيع. وأنا كعادتي يا سيدي أتفقد دار ابنتي من وقت لآخر، وفي ذلك اليوم أفاجأ يا سيدي بأن المفتاح لا يعمل. هل تتصور يا سيدي مفتاح بيت يخصك لا يعمل؟

وتابع سامي أبو خشبة بمذلة:

«استنجدت بالجيران فقال لي أحدهم أن ساكناً جديداً يدخل الدار ويخرج منها فظن الكل أنه من أهلها»

وهتف الوالد المغلوب على أمره:

«أيعقل يا سيدي أن يحدث هذا في زمنك. تصور يا سيدي أنه في زمن البعث تسرق حقوق الناس في وضح النهار. أن تُحتل البيوت في غياب أصحابها ؟»

هتف المقدم تركي باهتمام وكأنه يريد أن يحصل على جوهر الموضوع، وكان غاضباً:

«من الحيوان الذي فعل ذلك ؟»

آنذاك أدرك والد فضيلة أنه يقترب من حل المشكلة فقال بصوت خفيض:

«ضابط يا سيدي. ضابط كبير يفترض به أن يحترم الحقوق»

وأكمل بعد لحظة ليتابع خطابه هادفاً إلى إثارة النار:

«يغتصب الحقوق من كُلِّف بحماية الوطن»

وكان تركي في صمته المتوقد يتفحص محدثه لمزيد من التثبت من أقواله. ثم طلب بوقار المسؤول أن يستمع إلى التفاصيل من جديد، فاضطر والد فضيلة أن يحكي وكأنه يقدم تقريراً بالغ الأهمية:

«احتل دار ابنتي ضابط كبير، وقد عرفت أن أصوله تعود إلى القرية التي ينتمي إليها علي دشان. بل عرفت أيضاً يا سيدي أن الضابط قريب للدشان»

وتساءل الرئيس وهو يدون بالقلم على الورقة أمامه:

«من علي الدشان هذا ؟»

هتف الوالد ببراءة:

«الدشان يا سيدي. زوج ابنتي فضيلة.زوجها الذي كان»

فلمعت عينا المقدم وكأنه وقع على خبر مثير. تساءل:

«زوجها ! تعني أن ابنتك ما عادت زوجة له ؟»

فكان الوالد يكمل دون أن يعير تعليق المقدم أي اهتمام:

«لا أفهم لِمَ طُبع الناس على الغدر. بعض الناس يا سيدي. علي دشان غدر بابنتي.

ادّعى أنها لا تنجب فرمى يمين الطلاق عليها. ألا يمكن أن يكون العيب فيه يا سيدي؟»

واستطاع أبو خشبة أن يلوّن كلامه بدموع التأثر، فاستطرد قائلاً:

«طلق ابنتي يا سيدي. طلق فضيلة وقدمها تساوي رأسه، واستكمل انتقامه منها بأن أوعز إلى قريبه الضابط فاحتل الدار. أما عاد هناك خوف من الله ؟»

وارتعشت شفتا الوالد وهو يقول بصوت مخنوق:

«اسألها. اسأل فضيلة بنفسك وستعلم أي الرجال هو الدشان»

لبث المقدم تركي صامتاً يستغرقه التفكير في شيء واحد ملك عليه وجوده

«أهي الأقدار تنسج لك الطريق لتحصل على ما تريد ؟»

وسمع كلمات تصدر عن والد فضيلة وكأنها نحيب، وكانت تقول:

«من لنا غيرك يا سيادة المقدم. من لنا يعيد الحق غيرك ؟»

كان تركي مشغولاً في لملمة اضطرابه، وقال بعد أن استعاد نفسه:

«أزوركم مساء اليوم لأستمع شخصياً إلى صاحبة الشكوى»

وقال مستعيداً هيبة موقعه:

«لن نقبل في عهدنا بظلم مهما كان شأن الظالم»

وتوج قوله وهو يقف مودعاً ضيفه:

«سترى يا عم سامي أنَّــا لا نسمح بالظلم».

إنها ساعة الهجوم المناسبة. إنها المعجزة التي لا تخطر على بال. أهي الشمس التي تشرق فلا تغيب في ليل.

وزحف المقدم تركي مع بداية المساء متقدماً بخطوات منتصرة من الهدف. وعند مدخل البناية المعتم في حي الجميلية الذي أعاد الروح، وكانت ذكريات الشباب الأول تتفتح كأزهار في مرج منسي.

خطوات تركي تدخل ممر المدخل بثقة بالرغم من عدم وجود المرافقة، فتنعطف عند أول درج العمارة القديمة ليتوجه نحو الباب الخشبي الذي تعلوه

(نوّاسة) لا تكشف فقر الدهان الذي يلون الباب بالبني القاتم. وقف يقرأ بصعوبة اسم سامي أبو خشبة الذي كادت القطعة النحاسية أن تبتلعه. تساءل في سره:

«أتكون فضيلة خلف الباب ؟»

«هل سأقابل فضيلة حقاً ؟»

طويلاً وقف. لحظات واجفة مرت بتركي وهو يقف في مواجهة الباب الذي ارتسمت عليه روحه، وكان يتساءل:

«هل أهتف بملء صوتي : افتح يا سمسم ؟»

ولا يصدق أنه سيكون بعد قليل وجهاً لوجه أمام جوهرته، إلا أن الباب فتح بعد قليل ليطل منه والد فضيلة الذي تناثر ترحيبه بالقادم كفراشات ترفرف مبتهجة، فدفع الاستقبال الحميم بالمقدم إلى الدخول كأمير فرشت له الأرض بالتأهيل والفرح.

كان باب الدار يطل على الصالون مباشرة، وقد انتشرت في أرجائه نصف دستة من المقاعد الكبيرة تذكر بطراز قديم وقد جُددت وجوهها بمخمل زيتي توزعت على سطحها خطوط فضية مزركشة، وكانت المقاعد تنتشر على طرفي أريكة واسعة توزعت عليها وسائد صغيرة يدل لونها الأحمر على أنها جُعلت للضيوف المتميزين، وهي التي اقتيد تركي إليها ليحتلها وحده. وكرر سامي أبو خشبة ترحيبه واقفاً أمام الضيف، ثم ما لبث أن نادى بكل فرحه:

«سيادة المقدم تركي شرّفنا بزيارته يا فضيلة»

واختار بعد ذلك مقعداً له يجلس عليه كمريد في حضرة شيخه.

جعل المقدم تركي يتفحص بحذر المداخل الثلاثة للصالون يراهن على واحد منها والذي ستطل منه فضيلة بطلعتها البهية، بينما صاحب الدار لا يتوقف عن إبداء سروره بالزيارة المباركة فيتفنن بصيغ الترحيب بين لحظة

وأخرى، فضاقت روح تركي بانتظار فضيلة وبتكرار التزلف الذي لم يملُــه في مكتبه من قبل. فجأة سمع حركة الوالد وهو يهب واقفاً يقول:

«ادخلي يا ابنتي وسلمي على ضيفك»

جمد تركي آنذاك في مكانه ولم يجد قدرة في أن يحرك رأسه باتجاه الخطوات النسائية المتقدمة عن يمينه. ودخلت فضيلة ساحة الرؤية فوجد نفسه يقف على ساقيه المشدودتين كجندي يؤدي التحية لقائده. كان تركي يجاهد كي يظهر توازناً نجح بإظهاره.

فضيلة تقف في المركز، وتجعل كل شيء يدور من حولها. وهاهي تنتصب أمام تركي كملاك أنثوي يشع بنور زاد من بهائه سواد العباءة التي التفت كقشرة رقيقة حول قوامها لتظهر تفاصيل الجسد الذي امتلأ، وكأن السنوات التي مرت أفلحت في تفتح الغصن السمهري عن ثمار ينوء بحملها، فكانت فضيلة ترتج أنوثة وهي تصافح الضيف المسحور. وباتت كفها تنقل تياراً من حمى ساحرة تغلغل في كيان المقدم الذي تناثرت في الفضاء أحاسيسه المشتعلة.

ولا يعلم متى حدث ذلك ؟ تركي لا يعلم متى كانت تلك الكلمات قد وصلت سمعه الآن أم في عهود سابقة. سمعها بأذنه تقول :

«أهلاً بك حضرة المقدم» وكانت الكلمات المتسللة في لحمه وعظامه كوشوشة البحر، ووجد لسانه يقول:

«تركي يا سيدتي. اسمي تركي»

فجعلت فضيلة تخرج الكلام من بين شفتيها المتفجرتين بأحمر شفاه يشع كمرجان خرج لتوه من أعماق البحر:

«أهلاً تركي.. أهلاً بك في بيتك»

واكتمل الزمن الصاعق بقول الوالد:

«اجلسي يا ابنتي قريبة من ضيفك. سيادة المقدم يريد أن يستمع إليك»

ففعلت وقد فصلتها مسافة مبهمة عن تركي الذي مازال يسيطر على اضطرابه.

هل ما يحدث الآن هو حقيقي؟ أم أنه الوهم القديم مازال يغلق على روح تركي ؟ هل اقترب حقاً من فضيلة والتغت المسافات الضوئية بين السحر والمسحور ؟ وردد تركي في سره وكأنه يتلو صلاة الخشوع:

«أيمكن لبصرك أن يلعق حلمك القديم، وهل ستشرب روحك من ينبوع الصبية فلا ترتوي؟ ما أكرمك يا رب في خلق المصادفات الرائعة !»

وقام الوالد ليحضر صينية القهوة استجابة لصوت الأم التي لم تظهر، وإذا ما عاد كانت فضيلة تحكي بصوتها الرخو المتقطع، فتتنزل كلماتها على تركي كقطرات مطرتنعش أرضاً أهلكها الجفاف. هو يسمع بعينيه قبل أذنيه ويلاحق الكلمات واحدة فواحدة كي يستمع لا ليفهم. وكان تركي منذ البداية وقبل أن يدخل دار الحبيبة قد قرر أن يضع حلاً لأية مشكلة تعرضها عليه مهما كان حقها فيها. فالمقدم تركي سيقف إلى جانب فضيلة دون تردد. هو الآن يريد أن يتأكد بالعين والأذن أن الصبية حصلت على حريتها. قالت فضيلة :

«صحيح أني ضحيت بسنين من شبابي، لكني نجوت بروحي. رجل مثل الدشان، زوجي السابق، لا يستحق أن تكون له زوجة مثلي، ألست على حق يا تركي؟ فأدهشه إيقاع اسمه على فم فضيلة، وقد استكملت قولها:

«مهما بلغ الدشان من ثراء، فإن ما يملكه لا يعادل خصلة من شعري»

وكان انفعال فضيلة قد كشف عما بقي من غطاء شعرها، فانسدلت الخصلات الذهبية على كتفيها وجبينها لتظهر كجنية متنمرة. أعماق تركي تقول:

«يا للوحش الجميل !»

إلا أنه هتف بصوت خفيض يحمل شخصية رجل الأمن:

«هل آذاك ذاك الدشان في شيء سيدة فضيلة ؟»

فما كان من فضيلة إلا أن هتفت بعتب:

سمحت لي بمناداتك باسمك دون ألقاب، أفلا أستحق منك المثل ؟»

فعادت إلى المقدم روحه، بينما تعود فضيلة إلى القول:

«لقد وقعت يا تركي في فخ الخديعة. هل تستحق فضيلة أن تُخدع ؟»

وتابعت بضعف مؤثر:

«أشفقت على غربته. تجاوزت فرق السن، وقبلت به زوجاً. هل أستحق الإساءة يا تركي ؟»

وهتفت بنقمة :

«لم ينجح في احتجاز ذهبي ومجوهراتي، فلجأ إلى الخديعة. أوعز إلى قريب له يتباهى بنجومه، فاحتل بيتي»

وامتلأت عيناها فجأة بدموع تلمع ببريق يثير الشهوة، وقالت وهي تشهق:

«بيتي يا تركي، بيتي الذي هو حقي»

فما كان من المقدم تركي إلا أن هب واقفاً، وبغضب جعل يهتف:

«من يجرؤ على اغتصاب حق لك وأنا في هذه المدينة ؟»

وجاء التصميم في كلمات المقدم ليدفع بفضيلة إلى استرخاء وكأنها أنهت مهمتها في الحصول على ما تريد. تمتمت بهدوء قائلة:

«ومتى سنحتفل باستعادة الحق ؟»

فانطلق تركي يقول بحماسة:

«لنعتبر أن الاحتفال بدأ الآن»

آنذاك صفق والد فضيلة وهو يعبر عن سعادته بالقول:

«ألم أقل لك يا فضيلة أن نصيرك سيكون المقدم تركي»

فتملك الزهو كيان تركي، قال:

«اعتبرني يا عم سامي واحداً من العائلة»

هتفت فضيلة بنعومة لامست روح تركي:

«ألست واحداً منا. ألست يا تركي ؟»

أنا منك يا فضيلة وأنت مني، وكانت أعماقه تردد كأنه في صلاة:

«أنا أنت، وسأحافظ على عهدي ولو هدمت الدنيا على رأس من يقف في وجهي» وتوجه تركي بالكلام إلى المرأة التي استسلم ضعفها له:

«انسي يا سيدتي، وأصرُّ على سيدتي، انسي كل أحزانك وقسوة الأيام عليك، وامسحي من تاريخك ما وقع من ظلم عليك. أنا الذي سيرد لك حقك»

كانت فضيلة وهي تتابعه تغمزه بنظرات تشبه شلال حنان وإعجاب غسلت مياهه أيام الحرقة وعذاب الأوهام. وهتف الوالد بروح الانتصار التي ملكته:

«أين الشراب والحلوى يا أم فضيلة ؟»

وكان الأستاذ (وهب) قد أحيل على التقاعد قبل بلوغه السن القانونية، فلم يستطع أن يعرف السبب، فهو لم يكن في حزب معاد للسلطة، ولم تصدر عنه إشارة أو كلمة تسيء إلى الحكم. كان أكثر أساتذة الثانوية الأولى اتزاناً وتفهماً لاتجاهات الطلاب المختلفة. وسيتساءل مرة في المقهى الذي كان يجمعه مع رفاق في جلسة أسبوعية فأصبحت مع التقاعد يومية:

«هل كان سبب التعجيل في التخلص من أستاذ التاريخ أنه بات من التاريخ ؟ حقاً فأنا لم أفهم سبباً يدفعني إلى خانة المتقاعدين»

وعلق بالقول عميد سُرِّح بعد الثورة، وكان ساخراً:

«يبدو أننا خرجنا جميعاً من التاريخ، وأتساءل إن كانت المرحلة القادمة ستكون في خروجنا من الجغرافيا، فمن سنكون إذن ؟»

ربع قرن من عمر الأستاذ وهب ارتبط بالتعليم، والعشرون الأخيرة قضاها في ثانوية التجهيز الأولى مدرساً كان فيها يتابع ترجمة مقالات وكتب في التاريخ والأساطير المتعلقة بالمنطقة، وساهمت لغته الفرنسية والقراءة الواسعة في فتح آفاق النشر أمامه، وكانت دراساته حول مرحلة الانتداب الفرنسي تدفع به أيضاً إلى مقدمة الباحثين.

وعند وصول تكليف من دار نشر لبنانية كبرى له للقيام بتحقيقات صحفية عن واقع الحياة السورية، أحس وهب بأن إقصاءه عن التعليم سيعوضه اهتمام تلك الدار به، لذا عكف على رسم برنامج لحياته اليومية يأخذ العمل الصحفي جانباً منه فيتيح له أن يظهر كفاءته العلمية بروح موضوعية. وكانت حرب الخامس من حزيران قد خلقت آثاراً مازالت محرقة في روح الأستاذ، وبالرغم من مرور حوالى السنتين على حرب الأيام الستة فإنه ما يزال يضعها على قائمة

النكسات التي حلت بالبلد في القرون الأخيرة، لذا فقد كانت استجابته لطلب الدار اللبنانية دافعاً لإجراء سلسلة من التحقيقات الميدانية المستمدة من واقع النكسة على الناس. وكانت حلب نقطة البداية ليكون ميدانها فرصة له كي يعبر عن قناعته بأن مدينته تمثل بشكل ما كل الوطن. وهكذا كانت البداية.

في السوق القديم الذي يصب في محيط القلعة، كانت أولى الخطوات. وكانت (المدينة) وهي جملة أسواق متشعبة عن المحور الرئيسي الموسوم بـ (الزرب)، وقد ضمت مئات الدكاكين وعدداً من الخانات، فكانت أشبه بعالم متكامل في قلب حلب منذ مئات السنين، والذي كان مقصد أهل حلب والريف المحيط بها وعشائر البادية في الشمال السوري.

أراد الأستاذ وهب منذ بداية جولاته أن يسجل الانطباعات العفوية لأكبر عدد من تجار حلب وأصحاب الدكاكين التي تقدم الخدمات المختلفة من طعام وشراب وعقاقير طبيعية. وقد فوجئ الأستاذ في المقابلات الأولى بميل المتحدثين إلى ترداد أقوال مستمدة من تعليقات الراديو والتلفزيون وتصب بحماسة إلى جانب الدولة.

«حكومتنا، أطال الله عمرها، تعرف تماماً ما هي مصلحة الشعب»

«معركة حزيران لم نربحها، وماذا يعني ذلك، المعركة مستمرة والحزب يعرف كيف يكسب»

«النكسة تعني أن مريضاً قد شفي ثم انتكس، هذه هي الحقيقة»

وكانت تلك الأقوال تمثل إجابات مختزلة وتخفٍّ ذكي لعدد من أهل السوق، فأحس الأستاذ وهب أن التحفظ الذي ظهر في الأقوال يدل على التخوف من السائل، إن كان على صلة بجهة أمنية، فلازمه شعور بعدم جدوى أي تحقيق، إلا أنه ما لبث أن استعاد الثقة بمهمته وقرر أن يعاود العمل من جديد.

وقرر وهب أن تكون بدايته الثانية عن طريق البحث عند أهل السوق عن تفضيلهم للربح دون أمر آخر، فتأتي الهموم السياسية بعد ذلك، لذا فإنه لن يأتي على

ذكر حرب حزيران بل سيجعل الحديث عن الأوضاع الاقتصادية السائدة الآن. وكان لقاؤه بكبير تجار المكسرات هو الذي سيفتح له باباً لاستمراره في التحقيقات.

هتف (أبو الريش) وهو ينفث دخان نرجيلته كمن يخرج الضيق من صدره:

«ألا ترى معي يا أستاذ أن الحال ما عاد يطاق»

ثم همس وهو يميل على الأستاذ في الغرفة الداخلية لمخزنه الكبير:

«هم يريدون القضاء علينا. الاستيراد مقيد، وموظفو التجارة الخارجية يسلطون سيوفهم علينا. رجال الأمن يشاركون في أموالنا بطرق لا يقبلها العقل. الله لا يَقبلها. شرطة القسم يفرضون الخُـوّة، حتى الشرطة التي ملأنا أفواهها باللوز والفستق يطلبون المزيد. أتريد الحكومة أن تقضي على طبقة التجار ؟»

وعلى الطرف الآخر من الخان قال تاجر الأجواخ الإنكليزية وهو الذي تُوِّج منذ سنين المستورد الأول على مستوى الجمهورية:

«لقد مررت يا أستاذ بساحة الخان، ولابد أنك رأيت خلوها من البضائع. أين بالات الأقمشة التي كانت تملأ الساحة دوماً. أين ذهب الرزق. أهذه هي الحال في بلاد التجارة والحيوية أيها الأستاذ الفاضل ؟»

وكان التاجر يملأ بجسده المقعد الدوار، ويتابع بصوت واثق :

«توقف الدولاب يا رجل، ولا عمل لنا إلا مساء الخميس نوزع فيه الصدقـات على الفقراء، فهم وحدهم يحافظون على ذلك الموعد الأسبوعي، وأما تجار المُفرّق الذين سحبوا البضائع فلا يتقيدون بموعد الدفع. هل أفلست المدينة ؟»

وانتفض تاجر الأجواخ في مقعده الذي أرسل صريراً وهو يقول:

«أيعجبهم الحال ؟ أنتم الصحافة لا تدافعون عن التجار ولا تصورون ما باتوا عليه من أحوال فهل يرضيكم ما وصلنا إليه»

وانتفخت أوداجه وهو ينفث كلماته بحرقة:

«ماذا لو دخلت إسرائيل البلاد في حرب حزيران ؟»

وما لبث تاجر الأجواخ أن تماسك وهو يهتف متحفظاً في كلماته:

«أما كانت الأحوال أفضل !»

وظل يردّد لنفسه الكلام فيصل إلى سمع وهب كالقذائف:

«اشتراكية ! أليست هي اشتراكية الفقراء؟ هذا كفر يا ناس»

في البداية حمل الأستاذ وهب معه آلة تسجيل، فلاحقتها عيون الحذر، فما عادت ترافقه واكتفى بصياغة ما يسمع فيحمله إلى منزله لتتوفر له هناك ذخيرة تصلح لإعداد أكثر من حلقة. وهكذا انتعشت بداخله متعة الصحافة التي بدا له أن تصبح همه الأول. وذات ليلة وكان الوقت متأخراً طُرق الباب. كان الأستاذ يعمل في غرفته والأهل يغطون في النوم، وقرع الباب يستفز هدأة الليل فسعى الأستاذ إليه متسائلاً عن ذلك الزائر. وكان ثلاثة من رجال يسدون المدخل بمعاطفهم المطرية ونظراتهم القاسية بالرغم من صفاء السماء في الخارج. نظر وهب إلى الواقفين وكانوا يرمقونه بانتصار من حصل على الغنيمة:

«وهب خير الله»

هكذا هتف أحد الرجال بقسوة منعت الأستاذ من النطق بالموافقة التي اقتصرت على حركة من رأسه. قال آخر:

«وهب خير الله أنت مطلوب للأمن العسكري»

فتساءل الأستاذ:

«أليس الوقت متأخراً»

فسمع صوت يقول:

«الأمن لا يعمل وفق أوقاتك»

وتراجع الأستاذ وهب خطوة وهو يقول:

«أدخل إذن لتغيير ملابسي»

فاخترقه تعليق أدرك وهب أنه يمثل خطورة الموقف:

«من حظك أن البيجاما مقبولة في الفرع. هيا تفضل فليس لدينا وقت»

وحشر الأستاذ في سيارة جيب يحيط به عدد من الرجال، لينطلق الركب بعد ذلك مسرعاً في الظلام وهو يشق طريقه في الشوارع شبه الخالية، بينما يتابع الأستاذ الأشباح في المدينة وهو يحاول باحثاً في أعماقه أن يجد سبباً لما يحدث بالرغم من سماعه لأحداث مماثلة تتكرر. أهو مجهول آخر يلاحقه كالذي كان يوم إبلاغه بقرار الإحالة إلى جدول التقاعد، أم أن اللقاء اليومي في المقهى تسبب في هذا الاستدعاء البوليسي، وهل سيتسبب رفضه السابق للالتحاق بالحزب في تلقينه هذا الدرس العقوبة، ولابد أن مثل هذه اللعبة ظهرت في أفلام رديئة ؟. ويتساءل حائراً:

«ماذا يحدث حقاً ؟»

وارتسمت الابتسامة على وجه وهب وهو يحاول الاستماع إلى حوارات كانت تدور بين الرجال، فيداخله الظن بأن مثل هذا الكلام كان يدور في الفرع أيضاً فهذا يعني أنه مقبل على الاشتراك في مسرحية يجهل دوره فيها. كان واحد يقول:

«هل قُدر على الفرع أن يستقبل النفايات ؟»

ويعلق آخر وكأنه يتوجه بالكلام إلى نفسه:

«نفايات آخر الليل، يا ليل يا عين»

ويعلو صوت أحدهم وكأنه يريد أن يسمع الليل في الخارج:

«لماذا يحرمنا المشاغبون من العودة إلى عائلاتنا مساء كل يوم»

ويردد آخر كلماته وكأنه ينحت في صخر:

«هم ينعمون في بيوتهم مع أولادهم، ونحن لا نجد فرصة لخلع أحذيتنا»

وقال السائق متوقفاً عن دندنته بلحن بدوي استمر منذ بداية الرحلة:

«يكتب الثواب لكل من تحافظ قدمه على بسطاره لأنه لا يعرف الراحة»

وأضاف قائلاً وكأنه يؤدي نشيداً:

«اللهم اجعل الحذاء في فم المخربين»

وعند نهاية المطاف، سمح للسيارة بدخول ساحة المبنى الكبير، فأدرك الأستاذ أن الفصل الأول من الرحلة الليلية قد انتهى. وإذا ما أُخرج من الصندوق أحاط به رجلان جعلا يتقدمان به إلى درج ضيق يؤدي إلى قبو تلفظ إضاءته أنفاسها، ويبدو أن هذا المكان كان هو الفصل الجديد من الليلة العجيبة التي جعلت حياته في تلك اللحظات ظلاماً.

وأُغلق الباب الحديدي على الأستاذ فأصبح محاصراً في الغرفة الصغيرة، وأحدث الباب ضجة ما لبثت أن سكنت بعد لحظة. وهاهي (النوّاسة) المتدلية من السقف الواطئ تكشف السرير الحديدي وقد أطلت عليه فتحة صغيرة، بينما المغسلة والمرحاض يجاوران السرير، فكانت المساحة في مجملها تدل على أن الأستاذ وهب بات سجيناً بحق. وجعل يقيس طول المكان وعرضه بخطواته مفتتحاً بذلك محاولة التأقلم مع واقعه. قال:

«لابد أن المساحة على قدر الجريمة !»

كان بناء المقر قد ظهر له عند دخوله يليق بمؤسسة مدنية، فخجل من نفسه وهو بالبيجاما التي لم يظهر فيها خارج بيته من قبل، وهاهو الآن حبيس زنزانة تُذَكِّر بسجون العصور القديمة التي ظهرت في الأفلام.

«ما الحكاية يا وهب. لماذا. ماذا يحدث لي وما جريمتي ؟»

أسئلة تدور بداخله طوال الفترة المتبقية من تلك الليلة، والتي اختتمت دون أن يدري باستسلامه لإغفاءة لم يعلم مداها، وكذلك لم يقدر زمنها لحظة استيقاظه فهو لم يعتد على حمل ساعة يده وهو في الدار. لم يعد للزمن معنى.

كان صرير الباب قد أيقظه عندما فتح ليطل منه جندي يحمل طبق الطعام، فعلم أن الصباح قد حلَّ ليمُهِّد ليوم لم يكن ليحسب أنه قد يأتي، فأحلامه في إغفاءته المنهكة كانت غير معقولة ولا تحمل الطمأنينة. وقد حاول أن يتوجه بسؤال إلى حامل الطعام ولكنه لم يشهد فيه سوى الصمت فأقفل فمه.

وهكذا مرت ساعات أخرى قضاها وهب بين الجلوس على طرف السرير والمشي بين الجدران المتقاربة، وتحكمت الحيرة في خطواته، تخف وتشتد كإيقاع الغرفة التي تطبق عليه بفراغها الذي لا يجد له تسمية. ويدرك مع تزايد ثقل الفراغ عليه أن الصراخ لن ينفع كذلك الصمت لا يفيد، فيمكث منتظراً ما سيحدث.

وجاءه طعام الغداء يحمله رجلان عرف أنهما من الفريق الذي اقتاده. سأله الأول عن أحواله بود أثار استغرابه فلم يعثر على كلمة مناسبة يرد بها على السؤال، وقدم الثاني له حقيبة بلاستيكية وهو يقول أن (المعلم) أمر بإحضار الملابس لك من دارك وستجد معها عدة الحلاقة، وتابع مبتسماً لتكون المفاجأة الثانية:

«يبدو أنك يا أستاذ تلقى رعاية خاصة من المعلم».

بعد ساعات قدم رجال ثلاثة اصطحبوا الأستاذ وهب الذي مضى معهم إلى غرفة في طابق أعلى تصدرها مكتب حديدي جلس خلفه ضابط دعاه إلى لجلوس أمامه، وما لبثت القهوة أن قدمت ليدرك الأستاذ أن الفصل الثالث قد بدأ. وكانت بشاشة الضابط تعلن عن احتمال إجراء تحقيق عادي. تساءل وهب في سره:

«ماذا يحدث حقاً من تناقض في هذا المبنى ؟»

أجاب الأستاذ عن السؤال الذي افتتح اللقاء به، وقال أن اسمه هو وهب وكان أستاذاً للتاريخ في الثانوية التي باتت تسمى الآن بالمأمون. وهو متزوج من معلمة وابنته أنهت دراسة التربية وابنه في السنة الأخيرة من كلية الهندسة، وهو الآن مكلف بعمل للصحافة يقوم به إلى جانب الترجمة وكتابة الدراسات، وأضاف وهب وقد أنهى تقريره عن نفسه:

«ولا أعلم سبباً لوجودي هنا يا سيدي»

فقال المحقق بعد استماعه إلى أقوال وهب بينما يقلب أوراق إضبارة أمامه:

«هناك سبب يا أستاذ وهب. أنت هنا لسبب»

فتساءل الأستاذ عن السبب، فعاد المحقق إلى تقليب الأوراق وهو يهز رأسه وكأنه يقرأ في الإضبارة لتوه، قال:

«أنت تعلم أنه لا يجوز التعامل مع صحافة خارجية دون ترخيص أو أذن من السلطات المختصة هذا هو القانون يا أستاذ»

ثم تفحص وجه الأستاذ لفترة قصيرة أنهاها بقول تقريري يحمل الجدية:

«المعلومات تؤكد أنك تعمل لصالح جريدة لبنانية، وأكدت موافقتك الهاتفية منذ شهر على ذلك. وزارة الإعلام هي المخولة بإعطائك هذا الحق»

فلم يتردد الأستاذ بالتعليق بقوله أنه قد فعل، فتابع المحقق:

«التقارير أمامي تدل على أنك اخترت السوق ميداناً لعملك»

وقال المحقق بعصبية منضبطة:

«هل تعلم أن تلك اللقاءات أحدثت ما يمكن تسميته بالبلبلة في البلد. ولدي هنا اعترافات أدلى بها عدد من التجار تشير إلى ما يمكن أن نسميه بإثارة الفوضى. وأسألك يا أستاذ وهب ما علاقة التجار بالسياسة. كما سأسأل بعيداً عن الوثائق التي أمامي إن كان من اللائق ربط هيبة الدولة بمصطلحات صنعها ضعاف النفوس. النكسة ؟ أهو مصطلح علمي برأي أستاذ للتاريخ ؟ وكيف نسمح لأنفسنا أن نقيم علاقة بين كلمة النكسة وبين بطولات جنودنا الذين سقوا بدمائهم الزكية أرضنا الغالية»

كان الأستاذ يصغي باهتمام إلى كلمات المحقق فيجد أنه لا يملك الرد المناسب، فلبث صامتاً لا تظهر قسمات وجهه أي اعتراض أو تعليق. وحدث أن انتقل بصر الاثنين إلى رنين الهاتف المفاجئ. قال المحقق بعد استماعه إلى حديث الهاتف:

«سيادة المقدم يطلبك للمثول في مكتبه».

- ٤ -

وكما هي الأيام السابقة، انسحب تركي من مائدة الغداء المتأخر، وجعل يقول لزوجته، وهو ينظر إلى الساعة الأثرية في صدر الصالون، إنه مضطر للعودة إلى المكتب، وكان يعني هذا أنه لن يشرب القهوة معها في الشرفة المطلة على الحديقة العامة. ولم تعلق فضيلة على القرار الذي بات مألوفاً، بل تشاغلت بمد ذراعها إلى طبق الفاكهة لتأخذ منه أصبع الموز الذي جعلت تنتزع قشرته بلا مبالاة بينما عيناها تتعلقان بالنافذة البانورامية تراقب عبرها رؤوس الأشجار في الحديقة. وهب تركي واقفاً وهو يقول بلهجة معتذرة:

«لن أستطيع اليوم استقبال الضيوف، فالأعمال كثيرة يا حبيبتي»

وتابعت فضيلة تأملها لفضاء الخارج وقد انسدل الشال الحريري على الكتفين العاريتين، وإذا هي تسمع وقع خطواته المبتعدة جعلت تتمتم بصوت يحمل الضيق:

«كالعادة، سأقوم أنا بالواجب يا تركي»

كان الزواج قد مر عليه ما يقارب السنة، وشغل وجهاء المدينة بهذا الحدث الذي تسلل أيضاً إلى أسماع الناس. وكانت مزرعة كبير التجار (أبو الحديد) قد استقبلت وفود المدعوين المحملين بالهدايا المختبئة في صناديق مخملية، وقد سبقتهم آلاف الأزهار لتتوزع من مدخل المزرعة إلى إيوان خشبي أقيم خصيصاً لجلوس العروسين. وكان أبو الحديد قد تعهد بالقيام بواجب الفــرح، فحوّل مزرعته الخاصة المقامة في الضاحية الشمالية إلى بقعة مشتعلة بالأضواء والبهجة. وكان قد أقسم برأس زوجته الثالثة أن تدخل

هذه المناسبة تاريخ حلب كي تظل الأجيال تذكر الترحيب الذي يحاط به رئيس الأمن بما يليق بمكانته الاجتماعية والوطنية. وقد تحولت تلك الليلة إلى حدث شارك فيه المحافظ وكبار المسؤولين في الحزب والدولة إلى جانب الوجهاء الذين يشكلون واجهة المال والاقتصاد.

رائحة الشواء تتصاعد، وانعقدت النيران تتقلب عليها عشرات الخرفان والديوك الرومية، فظهرت المزرعة كغابة تحتفل في أرجائها قبيلة وثنية تتهلل وجوه أفرادها، وتختلط عطور النسوة بأنفاس الشواء، وهن قلة من زوجات كبار الصناعيين في المدينة، وقد أضفين بحضورهن لمسة رقي على حفل الزواج الذي اختلطت فيه الأزياء المختلفة، فمن السموكنج إلى الصايات اللامعة، بينما توحدت الأثواب السواريه للنساء الثريات وكأن مصدر الأثواب خياط واحد أو مجلة أزياء واحدة.

العروسان يتصدران مشهد الاحتفال وكان الواحد منهما يشع على حدة، إلا أنهما توحدا في استقطاب الأنظار تحوم حولهما لتغمرهما بالإعجاب. وساهم ضارب الشيش الواقف أمام العروسين في التفاف الجموع حولهما. وجعل يعرض سحره الذي تجلى في غرس السيف في خاصرته ليخرجه من الطرف الآخر، فتتصاعد آهات الدهشة والاستحسان، بينما المقدم تركي يتربع بوقاره على المقعد المذهب ويتهلل بالبشر وجه العروس. وما أن انسحب ضارب الشيش حتى جاء شاعر معمم ليحتل مكانه، وخيل للحضور أنهم سيستمعون إلى موعظة دينية ففاجأهم الشاعر بأبيات قصيدته المطولة افتتحها بمديح الحزب الذي منح المدينة فرصة للمقدم أن يكون فيها حكماً عدلاً، واختتم الشعر بالمديح للرسول الكريم وصحبه الأفاضل. وخَلَفَهُ رجل عجوز حاول أن يهيج المشاعر بقصيدة

تسببت مبالغاتها بتثاؤب أخفاه أصحابه بأيديهم خوف اللوم. وتوج ممثل القضاة مهرجان الثناء بخطبة عدد فيها مآثر رئيس الأمن في حماية العدالة وتشديد القبضة على المنحرفين والمتآمرين.

ويبدو أن عيون المدعوين لم تستطع إخفاء إعجابها بالذوق الرفيع للمقدم تركي في اختياره للعروس التي لم تشهد أعراس حلب امرأة في مثل جمالها منذ عقود كثيرة. وبالرغم من انتشار صور (فطوم المغربية) في بيوت ودكاكين في المدينة، فقد ظلت نموذجاً للجمال العربي لسنوات طويلة، إلا أن تلك الأمسية شهدت أحاديث جانبية حول (فضيلة الحلبية) التي ستنتشر سيرتها لاغية ما قبلها من نساء، لأنها المرأة الممثلة بجدارة للجمال المعاصر. وبينما فطوم المغربية التي احتلت الساحة لزمن لاكتناز جسدها برخاء اللحم، فقد انتهت ليبدأ زمن فضيلة.

كانت العروس ببريقها تغطي على ذهب مقعدها، وترفعت أنظارها عن مراقبة الطبق الكبير تحت قدميها وقد تكدست فيه علب ومظاريف الهدايا المقدمة. وكانت في جلستها تلك لا تنفك عن عقد المقارنة بين زواجها الأول بالدشان والثاني بالرئيس، فتعلن في سرها أن من يصبر يربح وأن الزواج من رجل غني مهما بلغت ثروته لا يماثل الاقتران برجل له مثل تلك المكانة وهذه المهابة، فأي حظ نِلْتِه !

وإذا ما حضرت الفرقة النحاسية تتقدم على إيقاعها راقصة ممتلئة، عادت الجموع لتلتف حول الساحة الممتدة أمام العروسين، لمتابعة الراقصة فنانة الأعراس الأشهر، فكان الواحد من أهل الفرح يزاحم الآخر للاقتراب من الراقصة وهي تتمايل وتتلوى في استعراض لكل زاوية من جسدها وكأنها تقدم عرضاً خاصاً لرئيس الأمن الذي سمعت أنه الأهم في حلب، يأمر

فيطاع، إلا أن المقدم تركي لم يحاول أن يسرق منها نظرة مؤكداً بوقاره أنه بالاتزان فوق كل الرجال في المزرعة، وأما فضيلة فكانت تلاحق الراقصة بتلذذ رسمته ملامح وجهها المتوهج بما يفوق نوره كل الأنوار المعلقة على الأشجار، وكانت على ثقة من أنها لو كانت مكانها لسحرت عيون الرجال والنساء كما كانت تفعل في استقبالات أمها الأسبوعية.

ولن يعلم أحد من الرجال شيئاً مما يدور في الأحاديث النسائية الجانبية وهي تحمل حقداً على العروس، كما لن يدخل أحد إلى أعماق رجال أخفوا حسداً عاصفاً للمقدم الذي أضاف إلى مركزه حصوله على امرأة لا توصف بأقل من أنها المستحيل.

وما دار في روح تركي تلك الليلة الكبرى، كان للماضي دور فيه. المدرسة والرفاق والعشيرة وبيت العائلة الذي عاش فيه مع الفوضى والحيوانات. وتدفق سيل الذكريات بداخله كجدول تعترض مجراه أحياناً أعشاب متماوجة وصخور متناثرة، فتهيج نفسه إذا ما تذكر موقعه بين الرفاق المقربين على تباين أحوالهم إذ كان الأقل حظاً في الحصول على مستقبل لائق، كذلك لعبت الصبية فضيلة آنذاك دوراً في يقظة الشك بأنه قادر على أن يحظى بها، وأن حلمه بها لن يتجاوز وهم الملامسة في الخيال، وقد تحول ذلك الوهم أيام الخدمة في الفرقة العسكرية إلى قسوة على الجنود اشتهر بها في تلك الأيام. وأما الآن ؟ ابتسامة النصر هي الباقية، والتي استمرت منذ أن رد لفضيلة بيتها المغتصب، ولحظة لوَّح بطلب يد الحبيبة فقوبل بالموافقة دون تردد. أهي المعجزة التي خبأها القدر له ليظهرها فجأة ؟

وخرج موكب الفرح من بوابة المزرعة تحمله الزغاريد، وتقدمت سيارة العروسين المكللة بالأزهار والشرائط تلحق بها عشرات السيارات

وسائقوها يتفننون بإرسال أصوات الأبواق في الفضاء، فيستيقظ النائمون في البيوت المنتشرة على الطريق، ويتجمع المتطفلون على الأطراف الترابية للشارع وهم يتساءلون عن سر هذا الموكب الليلي الذي لم تشهد منطقتهم مثيلاً له، وما كان لأحد أن يتخيل أهميته وفي مثل هذا الوقت المتأخر الذي سيعقبه الفجر بعد قليل.

وعند العمارة التي سيدخلها العروسان ملتحمين، أصابت فضيلة دهشة في البداية وهي تشاهد حبال الأنوار قد توزعت على الطبقات فتتذكر مواسم استقبال الحجاج بعد عودتهم من الديار المقدسة، فقالت لنفسها إنها ستدخل الآن ديرتها المقدسة. واستيقظ سكان العمارة ليتجمعوا في الشرفات يطلون منها على الازدحام الذي يغلي به الشارع، فكانت حبال الأنوار مع ذلك الحشد من السيارات يعزز عندهم الإيمان بأنهم أصبحوا جيراناً لأكثر الرجال أهمية. وفي اليوم التالي أدرك الجيران أن عمارتهم باتت محط أنظار الناس بالكوخ الخشبي عند المدخل ليأكل نصف الرصيف، والذي سيتناوب عليه حراس مسلحون يدققون بعيون يقظة حركة الدخول إلى المبنى لأي كان. وعلق واحد من السكان، وهو مسيحي يدير مطعماً معروفاً، أن الحماية جاءتهم مجانية، وهو الذي سيرسل أول هدية للساكن الجديد فيلحق به الآخرون، لذا قامت زوجة المقدم بعد أسبوع بدعوة نسوة العمارة إلى حفل إفطار أثار دهشتهن لما احتواه من أشكال الطعام المزين بالورود، كما سحرن بالأثاث المنتشر في غرف الدار الواسعة، وشعرن بالغيرة وهن يتابعن سيدة الدار التي استبدلت ملابسها أكثر من مرة أثناء تناول الإفطار.

- ٥ -

لبث الأستاذ وهب جالساً في غرفة الانتظار الملحقة بمكتب رئيس الفرع. وحيداً كان ولكن الفراغ يحيط به من حوله، فلم يكفّ لحظة عن التنقل ببصره بين لوحة زيتية لرئيس الدولة والصورة الفوتوغرافية لقلعة حلب على الحائط المقابل،كما أنه لم يتوقف عن إحصاء المقاعد الجلدية الموزعة على أطراف المكان. وكان بعد لقائه بالمحقق قد شعر بالاطمئنان بعد أن اتضح الأمر فالتهمة لا تستحق القلق. وعندما فتح الباب الداخلي ويطل منه السكرتير داعياً إياه للدخول، توجه الأستاذ بخطوات ثابتة إلى داخل المكان الذي كان أشبه بقاعة ظهرت له كمتحف احتشدت فيه الصور والخرائط والتماثيل وكأن مقر الرئيس يفتح ذراعيه لاحتواء أي شيء يقدم له. وقف الأستاذ في منتصف القاعة مواجهاً المقدم بسكينة فرضتها هيبة الرئيس الذي تصدر مكتبه وهو يتفحص القادم بجدية رافقتها طقطقة المسبحة التي تتلاعب بها أصابع كفه اليسرى بينما حملت اليمنى سيجاراً كبيراً لم يستخدم بعد. تساءل الأستاذ في سره إن كان الرئيس يُذكِّره بأحد يعرفه من قبل، إلا أنه انشغل بمراقبة مكتب المقدم الخشبي وقد حملته أقدام حيوان خرافي، فأدرك أنه في حضرة مسؤول كبير. قال المقدم تركي بصوت خفيض يخالط هدوءه حزم مصطنع:

«السيد وهب خير الله»

فأجاب الأستاذ بثقة :

«نعم يا سيدي، أنا وهب خير الله»

ومن جديد يحاول وهب أن يتذكر الشبيه، اسمه ومكان وزمن لقائه به، فلم يصل إلى جواب. ودعاه المقدم إلى الجلوس بإشارة من ذراعه، فاتخذ لنفسه مقعداً قريباً من وقفته. وجعل المقدم يتساءل بشيء من الود إن كان رجاله قد قدموا الرعاية المناسبة، فوافق الأستاذ بهز رأسه وهو يتمتم:

«رجال لطفاء يا سيدي»

دقائق صمت مرت فخالها وهب ساعات، وعندما قدم له كأس الشاي انتظر دقائق أخرى قبل أن تأتيه كلمات الرئيس وكأنه يتابع حديثاً سابقاً:

«أحوال البلد كما تعرف كأستاذ للتاريخ، تقتضي المزيد من الحرص على الأمن»

آنذاك تأكد الأستاذ من صوت المقدم أنه الشخص الذي ظنه شبيهاً:

«الطالب تركي. نعم إنه الطالب تركي بكل تأكيد»

وكتم اكتشافه بحرص خوف الإعلان عنه

« هل يكون ذلـــك الطالب الهادئ المنطـــوي على نفسه والنحيل كمن يعاني من سوء التغذية، هل يكون هو المقدم تركي الأنيق كنجم سينمائي والممتلئ بالصحة كرياضي ؟»

وجعل يتحدث بصوت واثق عن إيمانه الراسخ بأهمية الأمن في حماية الدولة وتوفر الطمأنينة للمجتمع، وإذا به يفاجأ بالمقدم يرد عليه بقوله:

«هذا ما تعلمناه في الثانوية يا أستاذ وهب، ومنك أنت تحديداً»

إذن جاءت الإشارة. علم الأستاذ أن الرئيس قد أرسل إليه أخيراً الإشارة التي ستزيد من طمأنينته، فتراجعت أحداث الليلة السابقة عن شاشة ضيقه وحيرته. وقال المقدم تركي:

«بعد أن بلغني خبر استدعاء صحفي أثارت زياراته المتكررة للأسواق الكثير من الأقاويل، تحريت عن هويته فعلمت أنه أنت، لذا رأيت أن أقابلك شخصياً»

وارتسمت ابتسامة على وجه الأستاذ تحولت إلى رضى وهو يتابع الاستماع إلى حديث المقدم الذي خلع قناع القسوة من وجهه:

«مرحباً بك أولاً، وأتمنى أن تكون رسائلك الصحفية القادمة لصالح بلدك سوريا كما عودتنا دوماً»

وقال المقدم بتعاطف مؤثر:

«إن معلماً للأجيال مثلك يمنح الصحافة شرفاً ويرفع من شأن الإعلام»

واستطرد المقدم تركي في حديثه مشيراً إلى أن الحزب الذي يقود الدولة بحاجة إلى يد العون يمدها له مفكرون ومثقفون من أمثال الأستاذ وهب. وقال بحزم صديق:

«سيكون مكتبي مفتوحاً أمامك يا أستاذنا لنعمل سوياً على إظهار صورة البلد بما يليق بها، ولنضع حداً للمخربين والرجعيين. وعملك يا أستاذ في الصحافة سيكشف دون ريب عن نوايا البعض منهم. وقد تخفى علينا أسرار الناس ولكنها تظهر لك، وأذكرك يا أستاذي بأني أقدر عالياً جهودك وأثمّن تعاونك»

وترك الرئيس مقعده فجأة متوجهاً الى وهب ليحتل المقعد المجاور له، فظهر الاثنان متقاربين كصديقين، وشد المقدم على ذراع الأستاذ وهو يكرر الترحيب به، بينما وهب يقلب في نفسه أقوال الرئيس

«يطلب مني أن أتعاون ! هل يلمح المقدم إلى نيته في ضمي إلى قائمة المخبرين العاملين عنده، أم أنه يطلب المعونة بنية صادقة؟»

وكان خروج الأستاذ من المبنى مغايراً لدخوله. وكانت بداية الليل تشهد الأستاذ برفقة سائق شاب يفتح باب السيارة الخاصة برئيس الفرع ليدخلها وهب كضيف مميز، فتتحرك المرسيدس السوداء متجهة نحو العودة. وبينما وهب يتأمل أحوال الشوارع والساحات وكأنه يتعرف إلى المدينة من جديد أو أنه يكتشفها لتوه، وكان لا يتوقف عن التفكير في حديث المقدم المبطن والذي يحاول أن يستبعد جانبه السيء. وما إن توقفت السيارة قريبة من الدار، تجمع

أولاد الحارة حول العربة الفارهة التي يندر أن يزورهم مثلها، وتزايدت دهشتهم لرؤية الأستاذ يترجل منها فاشتعلت أكفهم بالتصفيق وتعالت الهتافات بحياة أول رجل في الحي أنعم الله عليه، وكان الظن سائداً لدقائق بأن الأستاذ وهب بات مسؤولاً كبيراً.

ومنذ اللحظة التي وضع قدمه على مدخل العمارة، اتخذ وهب قراراً لن يحيد عنه، فهو لن يعمل في الصحافة وسيعود إلى برنامجه اليومي في القراءة وكتابة الأبحاث والترجمة وأن يلتزم بسلوكه العلمي الذي مشى على طريقه من قبل. أقسم أن يبتعد عن أي احتكاك له بجهة رسمية. لقد كانت التجربة هي التي دفعت به إلى اتخاذ موقفه والذي سيلتزم به مهما كانت الضغوط. وكان استقبال الأهل للعائد أشبه ما يكون بالاحتفال، إلا أن الأستاذ قابل حرارة اللقاء بهدوء وكأنه لم يغب لحظة عن الدار، كما أنه لم يعلق في الأيام التالية على ما جرى راجياً الزوجة والأولاد أن يُسقطوا من ذاكرتهم تلك الساعات التي لا تستحق أي اهتمام، وأنها في امتحانها للجميع قدمت تجربة ذات فائدة. ومع نصيحته تلك، ظل الأستاذ يعاني مع ذلك من تلك التجربة لزمن طويل وهو يحاكم أيامه السابقة والتي قرر أن تظل من الذكريات.

وقبل أن ينتصف الليل بقليل، عاد تركي إلى الدار. تسلل بحذر وكان الهدوء السائد يشعره بأن الكل نائم بلا ريب. ولم تكن تلك الليلة لتختلف في شيء عن غيرها، وأصبح نظام العودة المتأخرة هو السائد منذ الأيام التي أتت بعد حفل الزواج الكبير. وكالعادة يحس تركي بالضيق لأن الزوجة لا تنتظر قدومه بينما الحفاوة والاحترام يكونان بانتظاره دوماً لحظة دخوله مبنى الفرع. وقادته خطواته إلى غرفة النوم ليجد فضيلة نائمة في الفراش لم توقظها الضجة التي أحدثها تركي متعمداً وهو يفتح الباب. وقف لحظات يتأمل زوجته بغضب يداخله إعجاب بجسدها الذي لا يغطيه شيء سوى

الثوب الملتصق به. وارتد إلى الصالون ليتخذ مجلساً له على مقعده المفضل. وجعل يراقب فضاء الحديقة المعتم من وراء زجاج النافذة ويشعل سيجاره الكوبي ينفث مع دخانه الغضب الذي لا يتوقف. وكان يستعرض أحداث يومه وكأنه يقومها من أجل أن ينتهي منها استعداداً لفتح صفحة اليوم الآتي.

وفي هدأة الليل جعل يتساءل عن موقف فضيلة الذي ما عاد محتملاً كزوجة عليها انتظار الزوج بشوق وبخاصة أنه يعود مثقلاً بالمتاعب، فيكون انتظارها هو الذي يمسح عنه آثار العمل. كان بحاجة إلى لمسة حنان وحضن محبة. وكان دخان السيجار يسحب معه ذكريات الأيام القليلة التي خلفتها ليلة زواجه الأولى، وكانت تنعقد في الفضاء سحابة تمطر عطر المتعة المجنونة. لقد شهدت تلك الأيام معنى الحب القادر على سجن الزمن بين جدران الدار، فمن غرفة النوم إلى الصالون فالعودة إلى سرير الشوق المحموم تلك كانت حركة الزوجين وهي تتوس عبر ساعات الليل والنهار في الأيام الثلاثة. وكان تركي إذا ما تأمل المستلقية بقربه باستسلام كعائمة على سطح بحيرة اللذة، داخله الخوف من أن ما يحدث هو حلم قد لا يستمر، فيشتد الخوف عنده من أن يستيقظ ذات يوم فلا يجد فضيلة، أو أنه يبالغ في اعتصار جسدها بشبقه العنيف فتذوب بين ذراعيه، ويهتف في داخله أن تبقى له فضيلة. وفي تلك الفترة القصيرة حولته سنوات الجوع السابقة وأوهام الخيال إلى كائن بدائي هرب من قفص الحرمان ليجد نفسه منقضاً على ما كان يشتهيه. أتراه كان يحاول أن يؤكد على حريته بالذوبان في بحيرة الجسد الذي لم يترك بقعة منه لم ينهل من نعومته الملتهبة. كانت فضيلة بين التمتع والدلال ومداعبة أذنيه باللسان والكلمات توقظ الجنون في تركي، فلم يكن في تلك الأيام ليكمل أبداً فنجان قهوة أو كأس نبيذ مستجيباً إلى دعوة المرأة التي تتحول آنذاك إلى متعة خالصة لتسد الطرق أمامه فلا يبقى سواها.

وفي صباح اليوم الذي اختتمت به فترة الحب المجنون، قال تركي وهو يبحث عن ربطة عنق مناسبة:

«يجب أن أعود إلى العمل يا حبيبتي. طال غيابي عن المكتب»

فتساءلت فضيلة دون مقدمة:

«ماذا حدث لشهر العسل؟»

وكان تركي قد وعد في البداية أن يمضي الزوجان شهراً في باريس تحديداً، واعداً أن يكون شهر العسل حدثاً لن تنساه زوجته. وقالت فضيلة بتهكم مستتر:

«وهل يمكن لك أن تحقق وعد الشهر في باريس ؟»

فعلق ضاحكاً أن الوعد مازال قائماً، وفي نيته أن يجعل أهل باريس يحسدونه على أجمل امرأة حملتها الأرض، وقال إن الصبر سيعطي حلاوة أكثر لشهر العسل المرتقب. ويمر الزمن منزلقاً من يوم لآخر فيغرق تركي في العمل، فلا تيأس فضيلة وتُذكِّره من وقت لآخر بالرحلة إلى باريس، وستتحول إشارتها إلى عتب فسخرية مبطنة يأخذها تركي بمحبة ويعاود التأكيد أن الرحلة ستتحقق مهما كانت المشاغل.

وأطفأ تركي سيجاره مبالغاً بهرس جمرته في المنفضة. كان الغضب يتفاعل ببطء في نفسه فهب واقفاً ليتوجه بخطوات عسكرية نحو غرفة النوم. وكان نزقاً في فتح الباب وإشعال النور، فكان كل شيء يحدث أشبه ما يكون بحركة مسرحية تعلن عن ابتداء مشهد جديد فيها. فتحت فضيلة عينيها، ولم تكونا أصلاً مغلقتين لنوم، هتفت بشيء من الغضب:

«ألا تراعي حرمة نائم يا حضرة المقدم ؟»

فجمد تركي في وقفته وقد أخذته المفاجأة لا يجد كلمة ليعلق بها. بعد لحظات تقدم بهدوء مقترباً من السرير إلى أن اتخذ مكاناً له على طرفه. قال بعد صمت متودداً:

«لابد أن شيئاً ما يحدث في هذا البيت. أهو سحر كتب لنا ليجعل حياتنا هكذا ؟» واستوت فضيلة في جلستها وهي تهتف باحتجاج:

« أهذا وعدك بالسعادة ؟»

وبدلال ساخر قالت :

«هل تزوجتني لأظل حبيسة الجدران؟»

وتسببت دموع خفية في حشرجة صوتها وهي تهتف:

«أتهون عليك حبيبتك فضيلة ؟»

فامتدت ذراع تركي لتلمس كتفها فلم تعطه فضيلة فرصة لتودده، وبقول هامس اخترق سمعه كسهم جارح:

«كنت أظن قوتك تماثل موقفك كرجل متحضر يراعي زوجته فيعطيها ما تستحقه من وقت. أنسيت أنك تزوجت من امرأة اسمها فضيلة ؟»

وهتفت وكأنها تخاطب فضاء الغرفة، وكانت نبراتها تحمل رسالة إغراء لا تقاوم:

«ألست المرأة التي يستحق جمالها اهتماماً أكبر؟»

وحاول تركي أن يلمس ساقها من فوق الغطاء، إلا أنها نفرت مبتعدة عنه فيما انكشف الغطاء عن جزء كبير من جسدها، وبرزت أمام عيني تركي تفاصيل عارية من تحت الثوب الوردي الشفاف. تحولت فضيلة إلى شعلة أحرقت ما بقي عنده من صبر. ومنعه جنونه من خلع ملابسه عنه فقذف بنفسه على المرأة التي استسلمت دون مقاومة للعناق الوحشي.

ولم يتوقف كبير التجار (أبو الحديد الاسكندراني) عن بذل جهوده المتواصلة في الاتصال بالمقدم تركي من طرف ومن ثم بالشيخ حامد، فكانت له أكثر من زيارة لكل منهما يقترح اللقاء الذي يجمع بينهما، فهما كما يكرر قوله دوماً قطبا مدينة حلب، وأن هذا اللقاء سيحقق الفائدة لهما ولأهل المدينة. وقد استمرت تلك الوساطة ما يزيد عن شهر أعلن في نهايتها الشيخ حامد عن استعداده لزيارة رئيس الأمن، وفي مكان محايد. وستكون مزرعة أبو الحديد ذلك المكان.

يلتقي الرجلان أخيراً. صاحب الدعوة يعلن عن سروره البالغ وانتصاره، وكانت القاعة الكبيرة في المزرعة والتي شهدت لسنين جلسات الأنس والتفاهم بين رجالات المدينة من سياسيين وأصحاب الفعاليات الاقتصادية. واجتمع في غرفة قريبة مرافقو الطرفين يتراشقون بالصمت والنظرات الفاحصة كالخصوم الذين بينهم معاهدة عدم اعتداء. وفي بداية اللقاء تصافح القطبان ليأخذ كل منهما مقعداً على طرف من القاعة. وما إن انتهى أبو الحديد من ترحيبه بالضيفين حتى استأذن بالانصراف متعللاً بقيامه بجولة في المزرعة.

المقدم تركي هو الذي ابتدأ اللقاء بتوجيه التحية إلى الشيخ حامد، وكانت كلماته توحي بأن له دالة على المكان وكأنه مالكه، وجاء رد الشيخ حاملاً الشكر لهذه المصادفة التي لم تكن في حسبانه وكأنها إرادة الله التي دعت إلى هذا الاجتماع. واحتل الصمت بعد ذلك حيزاً من الزمن. قال المقدم في محاولة منه لإحياء الحديث:

«أخبار الصلوات والأدعية في مسجدك تحمل الخير لمستقبل الإيمان»

ولم يتوقف الشيخ عن التدقيق في وجه المقدم وصوته. عرف فجأة أن محدثه لم يكن سوى تركي رفيق المدرسة

«هو تركي، رفيق المدرسة القديم»

وتريث الشيخ حامد لحظات هتف بعدها بوقار:

«تركي.. رفيقنا تركي. يا للمفاجأة السعيدة !»

فتحفزت عينا المقدم وهو يتفحص وجه الشيخ المعمم الذي أخفت ملامحه لحية سوداء وأحاطت بعينيه هالتان من الكحل. ووجد المقدم نفسه يهتف خارجاً عن اتزانه:

«حامد.. الرفيق العزيز حامد»

فقال الشيخ:

«الشيخ حامد. الشيخ حامد نفسه»

وهب حامد مغادراً مقعده باتجاه الرفيق القديم، وكان يقول بود:

«يا للمفاجأة الغريبة !»

وكان حامد في الوقت نفسه قد تحرك ليلتقي مع تركي في منتصف الطريق. وبات العناق رسمياً بالرغم من الحرارة التي تملكت الرجلين.

وباتا متجاورين يفصل بينهما خيط من الود المستتر، وكان الحديث المتبادل بينهما يشبه حال دبلوماسيين محترفين، إلا أنه لا يبتعد عن استعادة أيام من الماضي المشترك فيعود أحدهما إلى استعراض واقعه الحاضر ولا يلبث أن يسترجع الأيام القديمة. جاءا على ذكر مواقف في المدرسة وأحاديث الأحلام فيها، ولم يتطرق أحد إلى العواطف التي كانت تجيش بها نفوس الرفـــاق. وتحول هذا اللقاء الثنائي إلى تثبيت ما اختفى من أيام وإلى تأكيد على الواقع الذي بات كل منهما فيه.

كان المقدم تركي قد تجمعت لديه قبل ذلك اللقاء تقارير وافية عن موقع الشيخ حامد نهر العلوم في أوساط القوى الدينية في المدينة والقرى المحيطة بها، ومدى الطاعة التي يدين بها الأعوان له، إلا أن الشيخ حامد لم يكن قد ملك سوى فكرة عامة عن دور المقدم تركي في السيطرة على المدينة دون ربط اسمه برفيق المدرسة، ولكن هذا الاجتماع فسّر نية الاثنين في أن يستفيد

الواحد من قوة الآخر، فيكون للمقدم قدم في الجو الديني كما يكون للشيخ دور في السلطة الحاكمة. المقدم تركي يفكر في إحكام قبضة الأمن على قطاع واسع من أهل المدينة والذي تشكل مكانة الشيخ حامد سيطرة واضحة على جانب منه، ويأمل الشيخ أن يرتبط بعلاقات مع الأمن العسكري الذي يقوده المقدم تركي بعد أن بات الأقوى في أجهزة السلطة. واشترك حلم الرجلين في مسار واحد يكون في السعي إلى تلاحم القوى الأكثر قوة في المدينة.

وانتهت ساعة اللقاء إلى تبادل ساخن في التفاهم الذي أظهر انسجاماً بين أفكار الرجلين، وكان هناك اتفاق على الاستمرار في اللقاء والتواصل. ولحظة خروجهما من القاعة متشابكي الأيدي والبشر يتطاير من وجهيهما، تبادل أعوان الطرفين تحيات الوداع وهم يسرعون إلى الالتفاف حول رئيسيهما. وقام المقدم بمرافقة الشيخ إلى سيارته، وظل منتظراً تحركها ليلوح له بذراعه كضيف عزيز. وكان تركي مستمراً في انفراج أساريره على غير عادته بينما يستقل سيارته لتتبعها سيارتا جيب احتشد فيهما الحراس.

وفي طريق العودة كان الشيخ حامد يدرس فكرة مزرعة تخصه، فيلجأ إليها للاعتكاف يوم يحس بالحاجة إلى الانفراد بنفسه بعيداً عن الزوجة والأتباع والطقوس التي تحولت إلى نظام صارم يحدد أوقاته وكل تصرفاته. وبالرغم من أنه لم يشاهد كامل المزرعة التي كان فيها إلا أن مدخلها وما يحف به من أشجار وأزهار قد أثارت عنده الرغبة في امتلاك مكان بعيد عن زحمة المدينة. وستظل هذه الرغبة محور تفكير سيسعى جاهداً إلى تحقيقها.

وفي طريق العودة رافقت فكرة شيطانية خيال المقدم تركي، وكانت تلح عليه «هل يمكن لها أن تحدث ؟»

وكان يتصور نفسه برفقة فضيلة متشابكي الأيدي في وقوفهما في قاعة الثانوية، وقد وقف الطلاب والأساتذة أمامهما تتعلق أبصارهم بالزوجين، وفجأة تخترق الفضاء هتافاتهم:

«تركي.. فضيلة. تركي الأقوى.. فضيلة الأجمل»

فترتفع ذراع تركي تلوح بعلامة النصر :

«أعلم أن قلوب البعض تحترق غيرة وحسداً»

هو يستعرض بعينيه الشامتتين وجوه الحشد وهو يهتف بصوت غير مسموع:

«نعم، فتركي هو الذي ربح الجائزة الأولى»

وبينما يشعل سيجاره مع تقدم السيارة، كان يقول لنفسه :

«لابد أن أتقدم بالشكر لله على ما قدم لي في السنوات الأخيرة. مكانة أولى في المدينة، وامرأة تثير الحسد في الشباب والعجائز»

وتساءل وهو يتلذذ بنفث الدخان الذي ملأ الجو المغلق إن كان قد كوفئ على صبره وعُوِّض عن حرمانه، أم أنه يستحق فعلاً ما حصل عليه.

وانكشفت للشيخ حامد بدايات المدينة وهو يدخلها وكأنه يفعل لأول مرة، فتتداعى الصور أمامه منذ أن توقف مشروع دراسته في الجامعة وتسلمه زمام المشيخة وارثاً مكانة الشيخ عصفور، ومحاطاً بطاعة أتباعه شيخاً أنسى بحكمته ورعايته ذكرى أبيه. هم يزحفون من الأحياء القديمة ومناطق من المدينة الحديثة ومن قرى مجاورة يهللون باسم الشيخ حامد الذي فاقت شهرته كل زعماء الجماعات الدينية المنتشرة. واستقطبت جاذبيته أعداداً من النساء التفت حوله كقطب يعيد الطمأنينة إلى من امتحنها الله من متزوجات ومطلقات وأرامل وعازبات أيضاً. ولطالما احتفظت نساء بأقوال الشيخ كتبت على رقاع وكأنها أحجبة تقي من أي سوء، كما حلف برأسه أو اسمه جميع المريدين والأتباع.

وما إن دارت السيارة حول القلعة باتجاه الزاوية تدب من خلفها سيارة المرافقة، حتى انطلق بتلاوة سورة الكرسي بصوت مسموع دفع السائق إلى ترديدها من بعده، وكاد صندوق السيارة أن يتحول إلى فضاء مبارك وكأن الراحلة عربة سماوية تطير في السماء وهي توزع البركة على الأحياء المحيطة بالقلعة المستكينة للهدوء.

بما تشتهي ولا تشتهي السفن

-١-

حمل المريد إلى الشيخ حامد أخباراً يتداولها في السر عدد متزايد من أهل المدينة، والتي ستؤكدها جماعة من أهل السوق بحرص يدل على سرية تلك الأخبار التي تشير إليها الشائعات حول أن البلاد مقبلة على محنة. وقيل إن أحداثاً ما ستقع في العاصمة أبطالها أطراف متصارعة من أهل السلطة. وقد صدق على تلك الشائعات عدد من الأتباع، فتحولت تجمعات ما بعد الصلاة إلى همسات سياســية، وقد علق الشيخ بعد تجمع الأقوال عنده، قائلاً يبتلهم الغيب:

«لكم دينكم ولي دين»

وخاطب جمهور المصلين في نهاية خطبة الجمعة بقول سبق الأدعية المألوفة:

«ليس لنا في هذه الدنيا الفانية سوى طلب المغفرة والدعاء لأنفسنا بالهداية كي تعمر القلوب جذوة الإيمان»

ثم أضاف بقوة قائد مهاب:

«للسياسة أحوالها وللعبادة إخلاصها، ولنا قدوة في الرسول الكريم والتابعين بإحسان إلى يوم الدين».

وكان اعتكاف الشيخ في خلوته ذلك المساء قد دفعه إلى محاولة البحث عن حقيقة ما يجري في البلد، وانتهى إلى أن رجلاً واحــداً قد يملك الجواب الشافي

«هو المقدم تركي من يعرف»

وتكرر اتصال الشيخ بالرقم الخاص للمقدم، وكانت النتيجة رنين لا يدل على وجود أحد. ولم يتوقف الشيخ حامد عن متابعة المحاولات المتعددة لساعات، فكان سمعه لا يعثر على صوت من الجانب الآخر. وفي صباح اليوم التالي تكرر الاتصال وتزايدت الوساوس في روح الشيخ فقلب المخاوف التي بدت أكيدة.

«أيكون المقدم تركي مسافراً، أم أنه منشغل بأمور أبعدته عن مكتبه ؟»

واستفحلت المخاوف من جديد، إلا أن عصر ذلك اليوم شهد نهاية لها.

كان رنين الهاتف قد مهد لظهور صوت المقدم تركي وهو يحمل للشيخ الطمأنينة والحسم لكل ما جاءه من إشاعات، وكان في ترحيب الشيخ بالمقدم ما يضع حداً للمخاوف السابقة. قال المقدم إن أموراً قد جرت إلا أنه أحكمت السيطرة عليها حفاظاً على أمن المدينة، وعلق متباهياً أن كل شيء أصبح بين يديه، إلا أنه طلب فجأة من صديقه أمراً أعاد إلى الشيخ شيئاً من الوسوسة وهو يراقب رنّــة صوت المقدم.

«إدعُ لي يا شيخ حامد بالتوفيق، فمثلك من يستجيب الله لدعائه»

وتساءل الشيخ مفكراً عقب انتهاء المكالمة:

«دعاء بالتوفيق ! ما الذي يريد المقدم أن يوفق به ؟»

وبعد لحظات قال الشيخ مقطباً:

«حقاً فإن شيئاً ما لا أفهمه يحدث في هذه الأيام»

وتابع شكوكه بالنداء بصوت مسموع:

«ألا تكشف لي السر يا شيخ عصفور»

وقرر الشيخ حامد أن يضع حداً لكل قلق بالتوجه إلى داره. استقبلته فاطمة وهي تحمل رضيعها (أبو الفضل) فما كان منه إلا أن حمل الطفل بين ذراعيه وهو يتأمل وجهه لتمحو نظراته البريئة كل ما يحمله الشيخ في نفسه من اضطراب. طبع قبلة على جبين الصغير بحنان وما لبث بعد ذلك أن أعاده إلى أمه ساعياً إلى الأريكة في غرفة النوم يتمدد عليها كعائد من معركة أنهكته. وهرعت إليه فاطمة بعد أن وسَّدت ابنها فراشه وقد خامرها شعور بأن الشيخ بحاجة إلى وقوفها بجانبه. مسحت على رأسه المتعب برقة حانية وهي تتساءل إن كان يشكو من شيء فقابلها بنفي من عينيه اللتين ظلتا ساهمتين تلتصقان بالسقف الخشبي الذي تتوسطه جملة (الله جل جلاله)، وقامت الزوجة برمي غطاء صوفي عليه خوفاً من برد الخريف، ولبثت مقعية على البساط بقربه تقبل كفه وتقرأ بصوت خفيض من الآيات ما تحصنه من سوء يسببه انشغال باله. وكان الشيخ حامد مغمض العينين لا ينطق بحرف وعقله يعود إلى نشاط متزايد

«أيمكن أن يكون هناك ما يحدث في البلاد له شأن ؟»

بعد فترة استوى في جلسته وهو يقول لنفسه:

«ليحدث ما يحدث، فلا شأن لي بما يحدث»

آنذاك طلب العشاء وقد استعاد وجهه تلك الطمأنينة التي عرف بها.

مساء يوم تشريني قريب، أعلن التلفزيون للناس نبأ تشكيل قيادة سياسية جديدة للحزب وقد حملت عنوان (الحركة التصحيحية)، واظهر ذلك الإعلان أن عهداً جديداً قد دخلته البلاد منذ تلك اللحظة. والتصق سمع الشيخ حامد

بالراديو الذي لم ينقطع عن متابعة أخبار التحولات. ونقلت إلى الشيخ في اليوم التالي أنباء تناقلها الناس في المدينة تعلن عن ارتياحهم لما حدث، كما بلغه ما حدث بالقرب من مقر الحزب من مناوشات فقد داهمت قوة مسلحة تلك التظاهرة التي انطلقت من المقر تندد بالعسكر الذين انقلبوا على مبادئ الحزب، فأسفرت المعركة القصيرة عن اعتقال عدد من الحزبيين المعارضين وهرب آخرون.ولم تشهد المدينة بعد ذلك أية حادثة مماثلة. وكان الاتصال الهاتفي بالمقدم تركي هو أول رد فعل لما يجري قام به الشيخ حامد، إلا أن الرنين التائه كان هو الجواب الوحيد.

«في أي طرف يقف المقدم تركي ؟»

«أتراه اختار الطرف المنتصر ؟»

وفي صباح اليوم التالي كلف الشيخ واحداً من مريديه بتقصي أخبار فرع الأمن على الطبيعة، وجاءه الخبر اليقين، فقد جمع المريد حزمة من الأقوال حصل عليها من الرجال هناك مما فتح لها الشيخ عينيه دهشة وأسفاً. المقدم تركي ما عاد رئيساً لفرع الأمن العسكري. المقدم استدعي إلى العاصمة. المقدم يرابط في بيته بانتظار استقرار الأوضاع. المقدم معتقل. المقدم هارب. الأنباء متضاربة ولكن المقدم لم يظهر منذ أكثر من يوم. واستعاد آنذاك الشيخ حامد كلمات المقدم له في طلب الدعاء

«هل كان المقدم يتوقع سوءاً فطلب الدعاء له ؟»

«أكان رهانه غير واثق لذا طلب العون في الدعاء ؟»

وتساءل الشيخ حامد وهو يشرب الشاي في عزلته:

«من تراه سيكون البديل، وهل يمكن الاستمرار في التعاون مع الأمن في عهده الجديد ؟»

لقد كان للمقدم تركي الفضل في حصول الشيخ على مزرعة صغيرة قامت على تل صغير في ريف الشمال، وبالرغم من أن تلك المزرعة لم يكن فيها سوى بناء قديم بغرفه الثلاثة فقد كانت أشجار الزيتون المعمرة المحيطة بالبناء هي التي استهوت الشيخ حامد فأقبل على الشراء دون تردد. كانت تلك الأشجار العتيقة تشكل مع الصخور المتناثرة على أرض المزرعة والأعشاب البرية المتناثرة تظهر التل كقلعة مهملة تشرف على السهول الممتدة تحت أقدامها. سحر الشيخ بالمكان الذي سيعتزل فيه بين حين وآخر. وكانت تلك المزرعة لأسرة فقدت عائلها وهاجر الأبناء إلى اليونان، ثم بقيت خالته بعد رحيل الأم لتصبح حديث أهل القرى القريبة، وتتحول مع الزمن إلى واحدة من الحكايات الخرافية الشائعة في المنطقة وهي تلمح إلى أن التل بات سكناً للأشباح.

وكان (ظافر) من أبرز المريدين الذين يلازمون الشيخ حامد في معظم الأوقات، وبات في الأشهر الأخيرة حارساً شخصياً، لذا فقد كانت تسميته بالظل واقعة قبلها بصدر رحب وهو يسمعها متداولة بين الأتباع، وجعلته أكثر التصاقاً بالشيخ. ولعب ظافر بخبرته السابقة كمقاول بناء صغير الدور الكامل في إعداد المزرعة العتيقة لتكون لائقة بخلوة الشيخ. ولم يكن أحد من الأتباع أو العائلة يعلم شيئاً عن أمر تلك المزرعة، فكانت السرية تحيط بخلوة المستقبل.

وما هي إلا أشهر قليلة حتى بات التل مع تجديد البناء فيه وتتويجه بقبة خضراء يشد أنظار العابرين من أهالي القرى، فتثار عندهم الأقاويل والتساؤلات حول المكان الأشبه بالمزار وقد سوَّره حديد معتَّق، وكأن أشباح الماضي استبدلت بالملائكة. وهكذا تحول التل إلى مركز يشع بهيبة الإيمان فيلهج المارة بالأدعية كلما نظروا إليه، ويطلبون حماية الأحبة وحُسن الختام

والسعة في الرزق فقد زُرِع المزار في منطقتهم ليمثل النعمة والبركة في هذا الزمن الصعب.

وكان الشيخ حامد بتردده النادر على خلوته الجديدة بعد أن تفقّد اللمسات الأخيرة في المكان فسحره التحول الجذري في المزرعة من بناء وحديقة، وأيقن أن نِعَم الله عليه لا تُعَدُّ، إلا أنه شكر في سره مسعى الرفيق القديم تركي في جهده للحصول على المزرعة وفي إشارته للبلدية أن تسوّي الطريق إلى التل بآلياتها، وقام بالدعاء لظافر على قدرته في تحويل الخراب إلى ما يشبه الحلـــم. وكان أن لمح واحد من أهل القرى الشيخ عند المنعطف المؤدي إلى طريق التل وهو يطل من سيارته، فطار فرحاً إلى قرينه يبشرهم بشيخ جليل يتردد على المزار، فعمَّ الفرح أهل القرية لينتشر بعد قليل في الأنحاء الممتدة من حولهم، ومع ذلك لم يجرؤ أحد على الصعود إلى المزرعة احتراماً لمهابته، وقد خرق تلك القاعدة صِبية وصلوا مرة إلى قرب السور فأجمعوا على أن أسياخه الحديدية لم تكن سوى آيات من القرآن الكريم مشغولة بسحر رباني تحيط بأطراف المزرعة وتحميها.

كان الانقلاب في المزرعة أشبه بمعجزة حولت سطح التل الذي كان يمثل الماضي المنسي إلى روضة بدت وكأنها هبطت من السماء، فباتت الخلوة وهي تشع بروح علوية كرقعة سابحة في فضاء الإيمان. وفي زيارته الأولى بعد إنجاز كل شيء، وقف الشيخ حامد ومن خلفه مريده ظافر يتأمل المزرعة فإذا بإحساسه بها يؤكد على أنها منارة وسط السهول من حولها، وقد زاد من توتر إحساسه شمس الأصيل التي رمت بغلالتها على كل ما يصل إليه البصر. وإذا ما توجه إلى البناء مروراً بالمساكب التي غرست فيها عيدان الورد وأبصال الزنبق جعل يلامس أشجار الزيتون وكأنه يتبارك بها،

كان يتابع أقوال ظافر تشرح له تفاصيل ما تم إنجازه في الأرض الصخرية، وأنه لم يجد وقتاً لجني ثمار الزيتون كذلك يظن في بقاء الثمار بركة وتمجيداً للخالق الذي أقسم بها في كتابه. وكان وقوف الشيخ تحت القبة في الصالة التي جمعت كل الغرف، وهو يتأمل النور القادم من عيون القبة الزجاجية، يعجب لما كانت عليه الصالة. الأرض تغطيها البسط الملونة وتتوزع على أطرافها الفرش والوسائد لُفّت بسجاجيد ناعمة، وتتصدر الصالة عند النافذة العريضة طبقات من الفرش أشار إليها المريد قائلاً:

«هذا مكانك يا مولانا. النافذة تشرف على السهول، وإذا ما قصدك الضيوف فأنت تجلس على العليّة تحادثهم منها وتباركهم بأنظارك»

تساءل الشيخ في سره:

«يبدو المكان وكأنه خيمة رئيس عشيرة»

وقال الشيخ لمريده وهو يتلمس البساط بقدميه الحافيتين :

«كنت أتصور المزرعة خلوة ألجأ إليها وحدي»

فأجاب ظافر بتباهٍ خفي:

«قد يأتي اليوم يا مولانا الذي يسعى فيه إليك الأتباع والأحباب»

وعاين الشيخ ملحقات القاعة من مطبخ وحمام وقد أُعِدا بإتقان يماثل ما في الدور الحديثة، وسمع مريده يقول:

«لن تحتاج في خلوتك يا مولانا إلى شيء»

فباركه الشيخ بثناء أدخل السرور إلى قلبه، وجعل يتابع خطوات شيخه وهي تمضي في قطع المسافة بين الجدران وكأنه يقيسها ويعلق في كل خطوة بكلمات لم يفهمها المريد.

- ٢ -

بعد يومين من إعلان التغيير في البلاد، أكدت وسائل الإعلام المختلفة سيطرة الحكم الجديد على سائر الأرجاء في البلاد. وامتلأت الشوارع في قلب المدينة بالتظاهرات تدور بالهتافات وهي تعلن التأييد وترفع اللافتات المرحبة بالحركة التصحيحية، وانتشرت الصور الملونة على الجدران لقائد الحركة فرددت اسمه الجماهير المختلفة. ولحق الأطفال بالفرق الشعبية تعلن بطبولها عن تأييدها وفرحها بالحدث الذي ظهر كخلاص من أزمة سابقة، وازدانت الدكاكين بالأعلام الوطنية وكأن في الحركة عيداً كانت المدينة في انتظار الإعلان عنه. ووجد الشيخ حامد فرصة له في الخروج من الزاوية متوجهاً إلى مزرعته فكان في قراره هذا إعلان عن خلوة له يهرب فيها إلى التأمل بعيداً عن الأحداث القائمة.

كان الريف هادئاً وتغمره أشعة شمس تذهب نحو الغروب، وكأن العالم خارج المدينة لا يعير اهتماماً لما يجري في البلاد. وانعقدت في السماء التشرينية غيوم متفرقة رسمت على صفحة الفضاء لوحة تابعها الشيخ حامد من خلف زجاج السيارة وهو يسبّح ويمجد الله في سمائه التي يزينها بإعجاز يدخل الطمأنينة إلى القلوب، وكان يمنّي النفس بالوصول إلى المزرعة سريعاً، إلا أنه مع ذلك لم يستعجل السائق. وما إن وصلت السيارة إلى المدخل حتى سمع سائقه ظافر يهتف متعجباً:

«أترى يا مولانا ما تراه عيناي ؟»

فعلق الشيخ بقوله إنه يرى ما هو جميل، إلا أنه تنبه إلى ذراع ظافر وهي تشير إلى طرف من السور فرفع حاجبيه مستغرباً ما وقعت عيناه عليه، هتف بقوله:

«ما حكاية هذه الدراجة النارية خارج السور ؟»

وتابع قائلاً بتساؤل:

«أليس مثلها كانت الشرطة تستخدم سابقاً ؟»

وترجل الشيخ ليمشي نحو الدراجة ومن خلفه ظافر. وقفا عندها يتفحصانها ويكتفيان بنظرات الدهشة المتسائلة ولا يملكان سوى الحيرة. بعد قليل عاينا البوابة فكانت مقفلة، فدخل الرجلان إلى الحديقة بحرص بالغ بينما عيونهما تجوسان في أرجائها بحثاً عن شيء ما له علاقة بالدراجة فلم يسفر التفتيش عن أمر أو دليل. وإذا ما تأكد للشيخ خلو المكان من أي غريب، دخل البيت يلحق به المريد بصمته.

وكانت المفاجأة. كان المقدم تركي بنفسه جالساً في القاعة وقد اتخذ له مقعداً على الوسادات وهو يتوجه بعينين زائغتين إلى نقطة في الفراغ، وكانت ذقنه غير الحليقة تبرز شحوباً واضحاً غطى وجهه. هتف الشيخ حامد:

«المقدم تركي»

وقال في تقدم خطواته منه :

«عزيزي المقدم تركي، أهلاً بك في دارك»

وتمتم المقدم بصوت مخذول دون أن يتطلع إلى الشيخ:

«صديقي الشيخ حامد، مرحباً»

وعندما يتخذ الشيخ مكاناً بالقرب من ضيفه، لبث المقدم صامتاً فما كان من الشيخ حامد إلا أن ربَّت بكفه فخذ تركي التائه لينقل إليه تعاطفاً فيه صدق كبير. بعد صمت طويل رافقه حامد باحترام للمقدم الذي كسره بكلمات متفرقة أشارت إلى أنه سمح لنفسه أن يقتحم المزرعة دون إذن من صاحبها، ثم هتف بحسرة:

«تصور يا صديقي حامد أنني أواجه مصيراً كهذا !»

كان المقدم تركي قد نجا بأعجوبة من حصار فرقة كلفت باعتقاله بعد محاولاته الوقوف في وجه القيادة الجديدة. تمتم بأسى دون أن ينظر إلى الشيخ حامد:

«يبدو أن رهاني لم يكن موفقاً»

وكان في هربه قد عثر على الموتوسيكل في مرآب الفرع فكان له حبل النجاة الذي سيقوده إلى المزرعة

«مزرعة صديقي القديم الجديد هي الأكثر أماناً»

هكذا قال المقدم، وتابع:

«تسلقت السور، وهاهو رفيقك يجد الأمان في حماية شيخ مبارك»

ومن قرية قريبة عاد ظافر بالطعام، فدل إقبال تركي عليه أنه لم يذق شيئاً منذ فترة كشفت عن جوعه، فكان يهم على الخبز التنوري والجبن الفلاحي بنهم المحروم بينما يراقبه الشيخ ويقول لنفسه:

«سبحان مغير الأحوال. أية مسيرة يمر بها الإنسان فلا يعرف ما هو مكتوب له!» وعندما تأمل تركي كأس الشاي كان يردد قائلاً يؤكد أنه من المستحيل أن يُبحث عنه في هذا المكان، وبشيء من ضعف قال:

«أتساعدني يا شيخ حامد ؟ يجب أن أصل اليوم إلى الحدود»

فما كان من الشيخ إلا أن قال متخوفاً:

«نعم فالحدود التركية قريبة، ولكن هل تضمن مرورك منها ؟»

فقال تركي إن الحل الوحيد له لا يكون إلا في الخروج من البلاد، وهمس بغضب دفين:

«بقائي في البلد سيعرضني دون شك للوقوع بين أيدي الخصوم»

وراح يتكلم ببطء وكأنه يقر بحقيقة متوقعة:

«هل أضمن سلامتي يا حامد من بطش متوقع»

فغمره الشيخ بعينين متعاطفتين تليق بصداقة قديمة.

ومع حلول الظلام تحركت السيارة باتجاه الحدود حاملة الشيخ وتركي المتقاربين، وكان ظافر يقود بحنكة الخبير في اختياره للطرق الترابية، وما إن وصل الركب إلى منطقة خالية أشار ظافر إلى أن هذه المنطقة من الأرض

يعتمدها المهربون في تنقلهم بين البلدين محاذرين المرور بالألغام المزروعة، وكانت إشارة ظافر تحمل تحذيراً للمقدم تركي الذي جعل يقول:

«سأكون حذراً فالمهم هو الخروج من البلاد»

وقف الصديقان في العراء المظلم. كانا متقابلين بحرارة تذكر بأيام المدرسة. حنين دفين وذكريات تجيش بها روحاهما وأعماق تفجرت فيها تفاصيل الصبا، وكأن بوابة الماضي انفتحت على زمن يتراقص في تدفقه، إلا أن واحداً من الرجلين لم ينطق بكلمة عن أي شيء محتفظاً بكل شيء كسرٌ دفين.

بعد فترة من الصمت المؤثر، تساءل تركي بحرقة واضحة:

«من الذي يخسر، من الذي يكسب. من الذي يملك الجواب القاطع ؟»

وقال الشيخ حامد وهو يحتضن صديقه بحرارة:

«هي الحياة يا عزيزي. لعبة المفاجآت التي نعجز عن التنبؤ بها»

كان الفراغ مخيماً كالمظلة الهائلة على الأراضي الموحشة، فيطول الوداع وكأن الصديقين يرفضان لحظة الفراق. قال تركي فجأة وهو يدور حول نفسه:

«اخترت الكلية العسكرية كي أختصـــر المسافة إلى المستقبل. كنت أراهــن على أن المستقبل هو النجاح. نجحت، وها إني أدفع ثمن الرهان، فأي زمن هذا يا صاحبي» وتوقف تركي فجأة عن الدوران، ابتعد خطوة وقال مقرراً:

«أما أنت يا شيخ حامد فقد اخترت الطمأنينة مبتعداً عن المفاجآت»

واقترب الشيخ من صديقه يحدثه:

«القدر هو الذي يختار ولا مردّ لقضاء، وتسليمنا به هو ربحنا الحقيقي»

ظل تركي صامتاً كمن يناقش في داخله قول الشيخ، إلا أنه جعل يقول بعد قليل:

«تلك الأيام. أيام الأحلام، هل تعود من جديد ؟»

وتراجع تركي خطوتين فيتلمس صخرة خلفه ليجلس عليها، ويقول بعد لحظات:

«كانت أيام الماضي نهاراً دائماً نحلم في ضوئه. ألا ترى الظلمة يا صديقي الآن ؟» فاقترب الشيخ منه وجعل يهز كتفي تركي برقة وهو يقول:

«لا تيأس من رحمة الله يا رجل»

آنذاك وقف تركي على قدميه ليخرج من جيبه مظروفاً قدمه إلى حامد وهو يقول:

«ليس لي غيرك في قيام واحد من رجالك بتسليم هذه الرسالة إلى زوجتي. زوجتي يا حامد هي ما بقي لي في هذه الدنيا»

وأضاف بقوله أن العنوان ورقم الهاتف مسجلان على المظروف، وكل ما أرجوه منك أن تطمئن بنفسك على وصول الرسالة. وهمَّ على الشيخ حامد يحتضنه من جديد، فكان الوداع دافئاً بعكس البرودة المسيطرة على العراء. وقد ظل حامد يلاحق المقدم مبتعداً وهو يشق الظلمة بخطوات سريعة، وكانت الآية التي يتمتم بها الشيخ ترافق المبتعد كحمامات وديعة.

طويلاً وقف الشيخ حامد بعد غياب تركي وهو يريد أن يستوثق من هربه، ثم ما لبث أن انكفأ عائداً إلى السيارة البعيدة، وكانت وحشة الظلام تعادل عنده وحشة الفراق. ومضت العربة تتحرك ببطء إلى أن وصلت إلى الطريق العام فتزايدت سرعتها، وظل السكون سائداً، فلا السائق ينطق بكلمة ولا ينقطع الشيخ عن ملاحقة ظلام الطريق تبدده أحياناً أنوار ترسل بها البيوت البعيدة. وتضاربت الصور المتعاقبة في مخيلة الشيخ حامد، فهو يستعيد صحبة المدرسة فيستعرض تجمعهم وأحاديثهم، مرحهم وعبثهم، يمر الواحد منهم أمامه فيبتسم ويتساءل عن مصيرهم. ثم يفكر بعلاقته التي قامت أيام المقدم تركي، ويستدعي أيامه في تسارعها منذ خلافته للشيخ عصفور إلى تزايد الملتفين حوله أتباعاً ومريدين، وإذا به يقارن موقعه الديني بقوة المقدم تركي فتهتف أعماقه:

«يبدو أن قوة الإيمان تفوق السلاح»

وهاجمه أسى القلق وهو يقلب في عقله كيف يمكن أن يكون عليه مستقبل تركي، وفكر في زوجته المسكينة التي فقدت معيلها وغابت أخباره عنها فهي بحاجة إلى مساندة حقاً، وعاهد نفسه أن يستجيب إلى أي طلب منها لو فعلت. وجعل وهو يقلب الأوضاع الجديدة في البلد يبحث عن موقع له في الساحة الدينية الذي وُعد به بعد أن غاب السند. وإذا ما اقتربت السيارة من مدخل المدينة هتف بصوت مسموع:

«الله يختار ما فيه الخير»

وكانت فضيلة قد طلبت من والدها أن يأتيها بأخبار عن زوجها الذي اختفت المعلومات عنه، فلم تحمل عودة سامي أبو خشبة إليها أية معلومات، وكان كل ما أعلم به ابنته أن زوجها قد اختفى كفصٍ ملح وقد تأكد أنه مطلوب من الشرطة العسكرية التي تمشط البلد بحثاً عنه كما أن أحداً لا يملك أخباراً تتعلق به. وقد تعززت مخاوف فضيلة عندما اقتحمت البيت فرقة مسلحة للبحث عن الهارب. قلبوا الفرش وفتحوا الخزائن وتفقدوا السقائف، وكانوا يخلفون الفوضى وراءهم في كل خطوة. وقام رئيس الفرقة باستجواب فضيلة يخالط استفساراته عن المقدم الخائن غضب كشف للزوجة حقيقة المأزق الذي وقع فيه زوجها، وأدركت آنذاك أن صفقة زواجها لم تكن رابحة. انخرطت فضيلة في بكاء بعد بقائها مع خادمتيها، فالحظ يخونها للمرة الثانية. وبالرغم من عدم اكتمال سنة على الزواج من رجل توِّج أميراً على المدينة فإذا هو يُلاحَق كهارب من العدالة. وبات غضب الزوجة المهزومة دافعاً لها في التحرك هائمة في أرجاء البيت وكأنها ترسم لخطواتها مسارات الحيرة والضياع.

«ماذا سيكون المستقبل يا فضيلة.. ما النهاية ؟»

وكانت في ترديدها للسؤال تتكشف لها الأيام القادمة، مجهولاً يلد المجهول. وإذا ما انتقلت إلى غرفة النوم جعلت تدور حول السرير العريض فيظهر لها كنعش في أرض خراب تحوم فوقه جنيات الشؤم، فلم تحتمل البقاء في الغرفة، وارتدت عائدة خطوة إلى الصالون الذي زحفت جدرانه عليها لتقف مقيدة في مساحة لا تسمح لها بالتقدم خطوة أو التراجع، فصرخت آهة من صدرها تعلن عن الخيبة فيه.

«يا لحظك يا فضيلة.. يا لخيبتك !»

بعد زمن لا حسبان له، وكأنه يجري مسرعاً بجنون أو أنه جامد في مكانه كمسلوب، طوّحت فضيلة بمنفضة الكريستال في الهواء، ورمت بالفاز الصيني على الأرض لتتناثر أجزاؤه في كل ركن، وأشعلت سيجارتها وهي تستقر على المقعد الذي أحست به الحاضن الوحيد لها، وجعلت تكلم نفسها بصوت مرتفع، أرعب الخادمتين المتنصتتين:

«ماذا لو عاد تركي. هل يمكن له أن يعود ؟»

وهي تقلب الأمر، هتفت:

«لا يمكن لفضيلة أن تقبل بزوج كهذا الخائب»

وما لبثت أن هبت واقفة يشد من عزمها قرار اتخذته لتوها:

«أيمكن لك أن تستمري بالزواج من رجل مهزوم ؟»

وتصيح بصوت أعاد الذعر إلى الخادمتين:

«لا يمكن لي.. لا يمكن لي.. لا يحق لرجل فاشل أن يكون زوجاً لفضيلة»

- ٣ -

أيام قليلة مرت على إزالة كوخ الحراسة الذي كان أمام مدخل العمارة، ومع ذلك لم يلحظ سامي أبو خشبة غيابه أثناء عبوره وقد ارتسم الهم على وجهه فدخل العمارة مطرقاً برأسه. وكانت خطوات الأب المتثاقلة تظهره كحامل أخبار ينوء بحملها. ولحظة دخوله بيت ابنته توجه مباشرة إلى الكرسي الوحيد في المدخل كمتعب يبحث عن استراحته بأي شكل كان. وعندما أطلت فضيلة عليه اصطحبته إلى الصالون فيما تعلن عن استغرابها من حضوره في هذا الوقت وتتساءل إن كان سوء أصاب أحداً من أهلها ليترك والدها عمله على غير عادته. وإذا ما استرد سامي أنفاسه جعل يردد كلمات يفهم منها أن مصيبة ما قد حلت، وإذا ما انتبه إلى فزع ابنته قال إن الجميع بخير إلا أن المصيبة وقعت ولا حل لها. وسمعت فضيلة والدها يكرر كلمة الدار.. الدار.. فتساءلت بعد طمأنينة قد حلّت بها:

«الدار.. أي دار. ما شأن الدار بالمصيبة ؟»

«المصيبة في دارك يا ابنتي»

فانطلقت فضيلة تردد اسم تركي، وتوقفت لتسأل:

«قبضوا على تركي. هل قبضوا عليه ؟ أعلم أنه سيقع في النهاية»

فقال الوالد مهدئاً من انفعال فضيلة:

«لم يجدوا تركي، والله أعلم أين اختفى»

وأضاف بعد صمت حذر:

«البيت يا فضيلة، فأصحابه يريدون أن يستردوه»

فانهارت فضيلة على المقعد وهي لا تنطق بكلمة.

وكان رجال الأعمال الذين قدموا البيت للمقدم تركي هدية لسكنه وليس ملكاً له، وهاهو سامي أبو خشبة الآن يمثلهم في الإعلان عن قرار استعادة البيت وقال الأب مطرقاً إن عليها الانتقال من الدار في أسبوع. علق مواسياً:

«تعود ملكية البيت لواحد من الجماعة، والمالك يدعي أنه بحاجة الآن إلى بيته لابنه الذي قرر الزواج. ويبدو أن هذا من حقه يا ابنتي»

وأضاف الأب بتملق واضح:

«لم يصبر الأنذال، فمن يدري متى يعود المقدم تركي»

فقالت فضيلة بسخرية فيها الكثير من المرارة:

«وهل مازال هناك أمل في عودته يا والدي ؟»

آنذاك هتف الأب متوسلاً:

«لا نستطيع أن نخالف قرارهم. هم القوة في المدينة. أسبوع واحد وتتدبرين أمرك»

وقال بثقة استعادها من جديد:

«ثم إنك لا تملكين وثيقة قانونية بشأن البيت»

وأضاف قائلاً وهو يراقب ابنته:

«لا تنسي أن بيت أهلك مازال يفتح صدره لك. أنسيت أنك ولدت فيه يا ابنتي» وقال مشجعاً وهو يتوجه إليها ليشدَّ على كتفيها:

«وبيتك في المحافظة لم يمسه أحد، فلمَ الحزن يا فتاتي ؟»

فما كان من فضيلة إلا أن قالت بسخرية:

«حزينة يا والدي بسبب الحظ الذي يلازم شبابي»

وفي مساء اليوم ذاته طُرق باب الدار التي خيم عليها جو من الكآبة لم يوقف حركة الاستعداد للمغادرة بعد أيام. كان ظافر موفد الشيخ حامد حاملاً الرسالة يطلب مقابلة حرم المقدم تركي، وإذا بفضيلة تظهر له فتدعوه إلى الدخول بعد أن سمعته يقول إنه يحمل رسالة من زوجها. كانت قد جمعت شعرها في منديل وجسدها في قميص وبنطال لتظهركشغالة فاتنة، فوجد ظافر نفسه مغلقاً على دهشة كمسحور أطبقت عليه خيوط النور الذي تشع بها امرأة لم تقع عين له على مثلها من قبل، فكان عليه أن يطرق بعينيه إلى الأرض وهو يمد لها يده بالرسالة. وعرفت فضيلة أن حامل الرسالة قد جاء بها من صديق لزوجها، فكانت وهي تفضها تتفحص الموفد في وقفته أمامها كتمثال حرِّم عليه النظر إلى امرأة. وانتقلت إلى الرسالة تقرأ أسطرها القليلة:

«إلى زوجتي الغالية فضيلة. لقد فشل رهاني الذي كنت أتمنى أن أفوز به من أجلك أنت. طالما حلمت أن أحقق ما يمكن لامرأة أن تناله في كل البلاد. لقد خانني الحظ يا حبيبتي. ولكني أعدك إذا ما عدت أن أعوض لك كل الساعات والأيام التي تمرعليك وأنت وحيدة. ستكونين معي في كل لحظة، وكل ما أرجوه هو أن تبقيني في قلبك لتستمر وحدة زواجنا قوية»

ومرت بعينيها على توقيع تركي دون أن تعيره اهتماماً منتقلة من جديد إلى أول الرسالة وهي تقول لنفسها:

«وماذا إذا عدت، فهل تتصور أني أعود إليك»

وعادت فضيلة بعد صمت طويل إلى حامل الرسالة لتدعوه إلى الجلوس ففعل، وكان أن سألته عن الطريقة التي جاءت بها الرسالة، فهتف ظافر بلا تردد:

«لا أعلم شيئاً وحق الله يا سيدتي»

ثم قال مستسلماً لفيض عينيها الساحرتين يحيك الشباك من حوله:

«أمرني الشيخ بحمل الرسالة إليك، وهذا كل ما أعرفه يا سيدتي»

وفي لحظات ستعرف فضيلة كل شيء عن الشيخ حامد وعلاقته بتركي. وعندما قدمت كأس العصير ارتعشت كف الرسول وهو يمسك بالكأس ويقول بصوت خفيض:

«سندعو لك دوماً، شيخي وأنا، أن يعيد الله إليك زوجك سالماً»

فهتفت في سرها وهي ترمق الموفد بنظرات غامضة:

«قل لشيخك أن يدعو لي بالحرية وحُسن الختام»

وحدثته فيما ترافقه بنفسها إلى باب الدار:

«أرجو أن تحمل الرسالة القادمة أخباراً أفضل»

فلم يفهم ظافر معنى قولها ومضى خارجاً بخطوات هادئة، مخلفاً المرأة تعود إلى فضاء الحديقة العامة وهي تؤنب نفسها:

«أي ذنب ارتكبت يا رب لأعاقب بالزواج ممن يسيء التصرف دوماً»

وكان ما يزال مخموراً عندما وقف ظافر أمام شيخه ليعلن أنه أنجز المهمة وأن الرسالة وصلت إلى صاحبتها يداً بيد، وما لبث أن استأذن قائلاً:

«إذا سمحت يا مولانا أن أتساءل عن رجل كالمقدم تركي لا يعمل بكل قواه للبقاء قريباً من امرأة كزوجته»

وهتف متنهداً وكأنه مصاب:

«أعان الله المقدم في محنة البعاد»

وكان الشيخ حامد يراقب مريده بنظرات لا يُعرف معناها، فما كان من ظافر إلا أن قال بتحسر لا يملك قدرة على إخفائه:

«لا أعتقد يا مولانا أن العقاب في المنصب الخطير الذي فقده المقدم تركي، بل هو في المرأة التي ابتعد عنها فلم يعد يراها»

وخرج الشيخ عن وقاره وهو يضحك قائلاً:

«سامحك الله يا رجل. ذهبت رسولاً تحمل رسالة لتعود نادباً حظ المقدم»

فأطرق ظافر خجلاً، وتمتم بصوت خجول:

«اعذرني يا مولانا على التجاوز الأحمق، فالسبب كان ضعفي كبشر في مقابلة امرأة كزوجة المقدم التي قد لا تكون من البشر»

وأعلن توبته في قوله:

« أعدك أن أتجاوز الضعف. لعن الله الشيطان»

واستقرت فضيلة بعد أيام في دار أهلها خارجة من بيت الزوجية مع خيوط الفجر الأولى تعزي نفسها بأن ما يحدث سيكون بداية الخلاص من الزواج، وأن عودتها إلى الأهل ستكون انطلاقة لها في بناء مستقبل جديد. كان وجوم الأهل عند عودة فضيلة لا يشكل لأفكارها عائقاً فكانت في سرها تحس بفرح قريب ينتظرها، إلا أنها لم تبتعد عن الاستمرار في البحث عن عيوب الزواج من الرجل الذي كان رئيساً للأمن، ولم يستطع أن يحافظ على مركزه.

وذات ليلة استلقت الأم على فراش فضيلة تحتضنها تواسي وحدتها المستمرة في غرفتها. جعلت تهمس في أذن ابنتها:

«ما الذي سيحدث لو طال غياب زوجك ؟»

هتفت فضيلة حازمة:

«الطلاق. الطلاق يا أمي، عاد تركي أو لم يعد»

آنذاك تحدثت الأم عن ضرورة اللجوء إلى الشرع:

«لابد أن الشرع يملك الحق وحده في إصدار حكم الطلاق»

وأضافت أنها سمعت كثيراً عن شيخ جليل يمكن أن نستفتيه في وضعك يا مسكينة.

وستقوم الأم بتحديد موعد مع الشيخ حامد عن طريق قريبة لها سترافق فضيلة في الزيارة التي حُدد موعدها بعد يومين من الطلب. وتوجهت فضيلة مع القريبة العجوز إلى مقر الشيخ دون أن يخطر ببالها أنها ستقابل الشيخ الذي عرفت عنه من حامل الرسالة، وكانت الأقاويل عنه تبعث الأمل في نفسها كي تجد لها حلاً.

وارتدت فضيلة عباءتها وغطت شعرها بخمار أسود كي تكون لائقة بالزاوية التي يستقبل فيها الشيخ من يلجأ إلى نصحه ومشورته. وطالت فترة الانتظار في الغرفة المخصصة للزوار ليبدأ الضيق بالتسلل إلى روح فضيلة فكانت مرافقتها تصبِّرُها بأن اللقاء مع الشيخ هو الذي سينوِّلُهَا حقها. وفجأة أطل الشيخ حامد من وراء الستار تسبقه رائحة المسك، وتنثر نظراته المشعة طمأنينة في فراغ المكان. هبت المرأتان واقفتين تدفعهما غريزة الاحترام لرجال الدين، فما كان من الشيخ إلا أن دعاهما إلى الجلوس وتوجه إلى مكتبه ليجلس خلفه وهو يطرق برأسه آخذاً وضع الاستعداد للاستماع. قالت فضيلة:

«كل ما أسعى إليه هو العدل، وشرْع الله هو العدل. وأنت يا فضيلة الشيخ تفهم في الشرع لذا فالحل عندك»

قادت كلمات المرأة الشيخ إلى توجيه نظراته إليها يريد أن يسبر أغوارها، فإذا هو لا يستطيع أن يرفع عينيه عنها، يمعن في التطلع إليها كمن يحاول أن يكشف عن الشكوك التي تساوره حول من تكون. أيمكن أن تكون، أم أنه الوهم ؟ أهي هي أم أنه خداع النظر؟.. لا العباءة ولا الخمار استطاعا أن يخفيا الحقيقة التي توصل إليها الشيخ. هتف فجأة في أعماقه التي تحيي لتوها فرح الاكتشاف:

«إنها والله هي. هي فضيلة. لا يمكن لجمال كهذا أن يكون لغير فضيلة»

يقولون إن الزمن نهر يجري، وهاهي فضيلة تثبت أن الزمن دائرة يعود دوماً إلى ما كان عليه. وناضل الشيخ وبات يقاوم انفجارات أعماقه المتتابعة. هو يقول وهو الذي يسمع والصمت يشترك فيه الجميع

«فضيلة الأيام الماضية. فضيلة الحاضر الذي هلَّ من غير موعد !»

أيام حامد تستعاد وهي تلبي رغبته الجامحة في أن يمثل الماضي بين يديه. الصبية تمخر بقوامها مياه الأشواق والأحلام. الصبية تمشي فتسعى من خلفها آهات الحرقة والتحسر، تمشي وهي تدوس الأماني بكبريائها، وكانت الرغبة تطمح إلى أن تتنشق رائحة الجسد الجميل. صبية الخمسينيات تحولت إلى امرأة السبعينيات فكأنها حافظت على روعة الزمن ورمت ماعداها إلى النسيان. الصبية امرأة ريَّانة والمرأة التي تجلس أمامه نور يضيء الروح والمكان. وكانت فضيلة وهي تتحرك في مقعدها تنز عباءتها بوهج الجسد

الذي اكتمل نضجه. فإذا ما التصقت نعومة الحرير بما تخفيه تحتها اشتعلت روح الشيخ حامد رغبة، فيغض من طرفه ويستغفر الله العظيم.

وبدأت فضيلة تطرح مشكلتها على الشيخ وكأنها تقدم تقريراً موجزاً عن حياتها الزوجية، وهي تطلب منه أن ينصح لها بطريقة تضع حداً لهذا الزواج.

«إذن فضيلة باتت زوجة تركي، وتركي هو زوج فضيلة»

وأصبحت القضية واضحة كما ردد في داخله، ولم يمنع نفسه من القول بصمت:

«يا سبحان الله، يرزقكم من حيث لا تعلمون»

وكان الشيخ يستعرض رفاق المدرسة في مخيلته لا يرى في تركي إلا الأقل حظاً، فكيف حصل على الفتاة المستحيلة من دون الآخرين.

«يبدو أن السلطة تصنع الحظ»

هتفت فضيلة بضعف اسمه الأنوثة الطاغية:

«أما من حل يا فضيلة الشيخ. أعلم أن الحل سيكون على يديك ؟»

وقالت المرافقة تبحث لها عن دور في هذا اللقاء:

«إذا كانت الحكومة تلاحق الزوج الهارب، فلِمَ لا يجد القانون حلاً للست فضيلة. ليس لنا غيرك يا شيخ حامد في البحث عن حل»

وكان وقار الشيخ يتجسد في قوله إن الشرع له الكلمة الأولى والأخيرة. وكادت نظرات فضيلة تخترق صدر الشيخ فقال دون تردد:

«نطلب من الله أن يلهمنا الحل في القضية»

وقال محدقاً في المرأة وقد ارتبطت العيون بوثاق متين:

«لا تيأسي من رحمة الله. هو لا ينسى عباده يا سيدة فضيلة».

- ٤ -

في ذلك اليوم زحفت غيوم الخريف وهي تبشر باقتراب الشتاء على سماء حلب، وكانت كثافتها كغمَّة تمسك بخناق الفضاء. وتحول المساء إلى كتلة من الظلمة هبطت على قلب الشيخ حامد الذي لبث جامداً في خلوته لساعات طويلة. كان يستعرض ذلك الزمن الخاص الذي مر عليه البارحة، فمنذ دخول المرأة ذات العباءة وأنوثتها الشيطانية لا اسم لها سوى فضيلة ذات الجمال الذي لا يتوقف عن التفتح كشجرة الأبدية، وحتى لحظة مغادرتها وهي تسحب معها أحشاء الشيخ ليتحول كيانه إلى فراغ، كان ذلك ما صار إليه الشيخ حامد. وفي خلوته الساكنة كصحراء زرع فيها الصمت سمع الشيخ نفسه تتساءل إن كان ظهور فضيلة المفاجئ بعد كل تلك السنين قد أحدث تأثيراً على كيان مشيخته، أم أنه سيحافظ على المسيرة بعد جهد من مراجعة النفس، لقد كان اشتهاؤه للمرأة نذير خطر. ووجد نفسه فجأة يهب واقفاً على قدميه وهو ينادي والده عصفور الجنة:

«لِمَ كُتب علي أن أكون خليفة لك ؟»

وصاح بحرقة:

«لا أنكر نعمتك، ولكنني أستنكر قيودك»

وأطل الشيخ عصفور من خلف الشباك المطل على صحن المسجد الذي غسلته الأمطار فلمعتِ أرضه كمرآة. واخترق المكان شبح الشيخ عصفور الجنة وهو ينفخ كلماته في الوجه المكفهر فتتنزل عليه كالسياط الملتهبة. سمع الشيخ حامد فضاء الغرفة يقول:

«اذهب يا ولدي وأقمْ صلاتك علَّ الله يمنح قلبك السلام ويغفر لك جنوح الروح»

وكانت الكلمات تمزق جلد الشيخ حامد فيرتعش. ويسمع القول من جديد:

«لا تترك للشيطان مكاناً في قلبك. ارجعْ إلى مكانتك التي أوجدتها بين الناس علَّها تُذكرك بأنها لك الحصن الواقي في وجه الشهوات»

كان الشيخ حامد يقف في نقطة من المكان الذي احتله الفراغ. عاد إلى الجلوس وهو يحس بالضياع، ثم ما لبث أن وقف ليخرج بعد لحظات. توجه إلى المحراب، فكان وحيداً في قاعة المسجد. توالت الركعات بلا حساب وتدفقت منه الآيات يتلوها بصوت مرتفع. كان يبحث عن خلاص.

وقاده الليل المتأخر إلى الدار. دخل الشيخ حامد متثاقل الخطى وقدماه تجران ساقيه. وهرعت فاطمة لحظة سماعها حركة صرير الباب الخارجي لاستقبال زوجها بلهفة تزايدت مع انتظاره، ومشت ترافقه إلى غرفة النوم. قالت فاطمة بعتب محب أنه نسي القبلة التي يخص بها ابنهما أبو الفضل كعادته. ودارت في رأس الشيخ حامد أفكار غير مستقرة وهو يستمع إلى ذكر اسم ابنه:

«ابني أبو الفضل. فضيلة. أتراها المصادفة تربط بين الاسمين ؟»

وقال الشيخ في سره:

«ألست أنا الذي اخترت الاسم ؟»

وتوجه بعد قليل إلى سرير الصغير يتأمل ابنه بتمعن فانفرجت أساريره لرؤية البراءة في ابتسامة الطفل، وامتدت أصابع الشيخ تداعب رأس الصغير برقة حانية. قالت فاطمة وهي تكاد تلتصق بزوجها:

«هل تعلم أن أبو الفضل نطق اليوم كلمة بابا مرتين ؟»

وبدلال أضافت وهي تقرِّب ذراع زوجها من صدرها:

«متى يقول ماما ؟»

وابتعد الشيخ حامد فجأة ساحباً ذراعه مبتعداً عن ذراع فاطمة. تساءل وهو يتراجع إن كانت الحمَّام جاهزة، فانقبض قلب فاطمة للسؤال فزوجها يغتسل عادة في الصباح الباكر من كل يوم عقب لقاء الفراش الليلي، وقالت لنفسها:

«لابد أن شيئاً ما قد حدث هذا اليوم. أكيدة أنا أن شيئاً ما غير طبيعي مر بالشيخ»

وإن ما حدث حتى وقت متأخر من ذلك المساء لم يكن في حسبان الزوجة، فبعد الحمام بقي الشيخ حامد جالساً على الأريكة أمام كتاب مفتوح تقلب عيناه صفحاته، فلم تستطع فاطمة أن تقاوم النعاس فذهبت في سبات عميق بعد أن ظلت تراقب زوجها لفترة من الزمن. وظل الشيخ يقرأ في كتاب الفتاوى لـــ (إبن قيم الجوزية)، فتظهر له فضيلة من بين السطور وهي تتراقص بجسدها الريان لتطمس أحياناً الكثير من الكلمات، وكان مثل هذا التجاذب بين الكلمات والجسد يتكرر بلا انقطاع. واستطاع الشيخ أن يلجم خيالاته ويتوقف عند قول يشير إلى أن المفتي إذا نزلت به المسألة أن ينبعث من قلبه ملهم الصواب ومعلم الخير والهادي، فما لبث الشيخ أن هتف:

«اتبع قلبي إذن»

فوجد كيانه بكليته يقترب من فضيلة، يكاد يلمسها فتبتعد، يسعى إليها فتركض، فيسمع لهاثه بنفسه، وتصرخ أعماقه:

«هل يمكن لك أن تتحرر منها يا حامد ؟»

وتعود فضيلة إلى شاشة خياله، فيخاطب نفسه:

«هل باتت هذه المرأة جزءاً من القدر ؟»

وكانت تومئ إليه برأسها الذهبي أن يتبعها فيفعل منساقاً إليها دون تفكير، تبتعد من جديد فتلهث أنفاسه وهي تلاحق همهماتها الشبقة. إنه سباق

المحبين إلى ذروة المتعة، ولكن السباق يتوقف فجأة لحظة دخول فضيلة في جملة من الكتاب وكأنها حروف مستلقية في المعنى، وكانت الجملة مبهمة، وكانت جداراً لا منفذ فيه كالسّدّ.

وأغلق الشيخ كتابه، وجعل يسرح ببصره في فضاء الغرفة لتقع عيناه على فاطمة التي انزاح الغطاء عن جزء منها لتظهر ساقها. توجه إلى الفراش فسوّى الغطاء ليستر به اللحم العاري ووقف متفحصاً وجه النائمة فإذا بفضيلة هي المستلقية في فراشه. تراجع خائفاً من أوهامه وهو يستعيذ بالله من أفكاره، و لا يلبث أن يقرأ دعاء لا يفهم كلماته.

أخيراً رمى الشيخ بجسده إلى الفراش فذهب في نوم سريع. وكانت ساعات النوم القليلة ساحة لأحلام تتناوب عليه. معارك أحلام لا تهدأ.

«منتصبة القامة كخيزرانة متباهية، كانت فضيلة. هي تقطف الزهور في سهل مترامي الأطراف كالبحر. وضعت الأزهار على جسدها العاري تستر بها أجزاءاً منه فتتساقط. فضيلة تتثنى كغصن مثمر تتلاعب به ريح رقيقة. تهتف منادية باسم حامد أن يلاحق معها سرب الفراشات. يحاول أن يجاريها فتنزلق ســـاقه ويقع في حفرة تملؤها رغوة لزجة.»

يتقلب الشيخ حامد في نومه ليعطي ظهره أخيراً لزوجته

«وقفت فضيلة على آخر الدرج في مدخل القلعة، ومن خلفها ظهر باب الحيّات. حامد بملابس رياضية يهم بالصعود،فما إن يرتقي درجة حتى يتراجع من جديد.نداءات فضيلة تتوالى فتصل سمعه كضجيج يتدحرج على البلاط، فيما يحاول أن يتقدم فلا يوفق. ينادي على الشيخ عصفور أن يمد له يد العون. يظهر الوالد واقفاً في منتصف المسافة،كان الشيخ عصفور في لباس عسكري يرفع كفه كعلامة على التوقف.»

وانقلب الشيخ حامد على ظهره وأنفاسه تتابع وكأنها الشخير

«صحراء بلا حدود، يدب على رملها حامد ممسكاً بيد فضيلة. السراب يبتعد، وتظهر مدينة مكة من جوف السراب. يتجلى الحرم الشريف للرؤية فيدخلانه دون عائق بالرغم من تجمع الآلاف من المحرمين حول الكعبة. حامد يكرر الهتاف باسم فضيلة فتلحق به حناجر الآخرين».

«يتحول هتاف حامد إلى ناظم لحركة الآلاف في طوافهم بالكعبة. ينظر إلى فضيلة فيجدها تدور أيضاً بصمت لا تنطق بحرف»

يعطي حامد وجهه لزوجته النائمة بالقرب منه، وتسقط ذراعه على ظهرها

«تخرج فضيلة من حارة معتمة. تتقدم بخطوات طائرة فتخترق سوراً عالياً يتطاير ثوبها الذي يشف عن جسد وردي. الثوب أجنحة تحملها إلى الطرف الآخر من السور. (كلّة معروف) تتمايل في فضاء البوابة المؤدية إلى السور. يصرخ حامد منادياً أن تعود إليه فضيلة. تسقط (كلّة معروف) على رأسه»

ويستيقظ الشيخ حامد فزعاً، وكان ثوبه مبللاً بالعرق. عيناه زائغتان وكأنه لم يخرج بعد من أمواج أحلامه. تفقّد فاطمة فلم يجدها في الفراش، وعلم أنه تجاوز حدود نومه المعتاد. وظهرت فاطمة عند الباب فور سماعها نداء زوجها الذي استوى جالساً في ذهول أثار مخاوفها، فهرعت إليه تحتضنه وتسمّي بالله وتتعوذ من الشيطان. ولم تجرؤ فاطمة على تكرار سؤالها عن الحلم الذي أزعجه فقد أشاح الشيخ بوجهه عند سماعه السؤال، ولجأت إلى ترديد الأدعية وهي تمسح على رأس زوجها بخوف محب.

بعد خروج الشيخ حامد من الدار، لبثت فاطمة جالسة مع وحدتها تحاول أن تربط بين ما رأته من تصرفات غريبة منذ مساء البارحة وما حدث له صبيحة اليوم، فلا تصل إلى نتيجة وتجد في الدعاء له حلاً لوساوسها. وقادتها الوحدة إلى استعادة السنوات الطويلة التي عاصرت فيها الشيخ كطفلة وصبية ثم زوجة ترعاه بالطاعة والحنان، إلا أنها لم تتوقف عن البحث عن جواب لسر تلك الأحوال التي يمر بها زوجها

«أتراه سحراً كتبه له عدو ؟»

ثم هتفت بصوت مسموع :

«لا يمكن لرجل مثل الشيخ حامد أن يتأثر بسحر مهما كانت قوته»

ومع ثقتها بقوة زوجها فإنها فكرت في اللجوء إلى أقرب مريديه فقد يساعدها في العثور على جواب، إلا أنها سرعان ما تراجعت عن الفكرة لاستحالتها، وتعود إلى الدعاء أن يزيل عن زوجها الغم ويحميه من أي خطر.

«هو السند الوحيد لي في هذه الدنيا. أب وزوج وبركة حلّت عليك بعد يتم ووحشة»

ومنذ اللقاء بالشيخ حامد، كانت فضيلة قد أُخذت به. ظلت صورته قائمة في مخيلتها بعد تلك الفترة التي حسبتها خاطفة وقد حفرت أثراً لا يمكن نسيانه. وتحول حضوره فيها مع مرور الساعات إلى رمز لخلاصها من زوج هارب، كما كانت رجولته المهيبة دافعاً لها في اشتهاء ضمها إلى أنوثتها لتصبح الوجه الآخر لها. لقد قاد إحساسها أثناء اللقاء بالشيخ أنها خلّفت أيضاً في الرجل أثراً لا تعرف أين استقر

«عيناه. قلبه. روحه»

وكان أثره فيها لا يقاوَم

«أهو القدر، أم أنها رياح المصادفة توجه السفن كما تريد ؟»

ولم تقاوِم القرار الذي اتخذته

«يبدو أن سفينتك يا فضيلة ترغب في اللجوء إلى مرفأ الشيخ»

وحصلت من قريبة أمها على رقم هاتف الشيخ حامد. وكانت خطوتها التالية في اتصالها، ولم تكن لتملك خطة في الحديث. وكان على

الطرف الآخر إعلان بصوت رجل يقول أنه مكتب الشيخ، ويطلب من المتكلمة أن تعلن عن اسمها والغرض من المكالمة، فأدركت فضيلة آنذاك أن للشيخ مكانة غير عادية وعلمت أنها ستتعامل مع رجل مهم دون شك. وقررت في المساء أن تعاود الاتصال وقد وجدت أن الحديث يمكن أن يبدأ بالاستفسار عن مشكلتها. لم يسفر الرنين عن شيء. فعاودت الاتصال بعد قليل، وكانت المفاجأة في صوت يعلن أنه الشيخ حامد نفسه. تمالكت فضيلة مشاعرها وهي تعلن عن نفسها أيضاً. قال الشيخ إنه لم يزل يبحث عن حل، فهو لم يتوقف منذ استشارته عن دراسة مشكلتها من كل الجوانب، وقال أنه يأمل من الله أن يتوصل إلى حل بإذنه، ولن يتخلى الله عن مساندة امرأة مثلك. فلم تفعل فضيلة سوى تقديم الشكر لتفكيره بها، وكانت عذوبة صوتها تتألق في قولها:

«لقد وضعت حياتي في سلّتك. أنت أجدر الناس بمداواة الجراح»

وتمالك الشيخ حامد نفسه وهو يعلن أن الست فضيلة لم تخطئ في اللجوء إليه. وما كان من فضيلة إلا أن أعلنت بحزم مثير :

«إخلاصك في التفكير بالحل يجب أن يدفعك إلى مناداتي باسمي دون ألقاب»

وأضافت بإغراء:

«أليس هذا يؤكد على صدق الإخلاص ؟»

وخيل للشيخ حامد أنه يستطيع أن يبادلها الشعور بالسماح لها أن تناديه باسمه المجرد، إلا أنه لم يفعل، وقال:

«سأكون جاهزاً للاستماع إليك لحظة تشائين».

- ٥ -

وحيداً تسلل الشيخ حامد من الدار تحت خيمة الظلام الذي يسبق توقيت الإعلان عن صلاة الفجر. خرج من حارة المسجد لتصب خطواته في الشارع كباحث عن هدف لم يحدد أو أنه لا يعرف عنه شيئاً، وكانت أقدامه تدب على الأرض وهي حاملة الجسد المثقل بالضياع.

مشى الشيخ على الرصيف المحيط بالقلعة التي تحولت إلى مركز دائرة المدينة، وجعلت برودة الهواء تدفع بالأقدام إلى الاستمرار في قطع المسافات المطلة على الخندق المظلم، فساور الشيخ آنذاك شعور من يقترب من الهاوية.

وكان الشيخ قد انسل من بيته دون أن يشعر به أحد من أهل الدار، فخرج إلى الحارة ساعياً إلى الطواف حول القلعة، وإذا ما وقف أمام بوابتها الشامخة جعل يتأملها بحثاً عن مدخل ينفذ منه إلى خلاص من مأزق العواطف الملتهبة، إلا أنه بعد قليل تابع طريقه على الرصيف وهو يحاول أن يستجمع أفكاره المتناثرة كقصاصات تتلاعب بها الريح القادمة من كل اتجاه.

وأرسلت أعمدة النور، المنتصبة في الشارع الملتف حول القلعة، أضواءها الشاحبة تؤكد أن الشيخ حامد هو الوحيد في ذلك الوقت في المنطقة، بالرغم من أن الحارس لمدخل سراي الحكومة قد ظهر نائماً على نافذة المحرس. ويبدو أنه كان يحس بالأمان فأغفى.

«سعيدٌ مَنْ يعرف النوم بينما حرمت أنت من طمأنينة السُبات»

هكذا حدَّث الشيخ نفسه وهو مستمر في المضي قدماً وبالرغم من برودة أواخر الخريف في حلب فإن اشتعال جسده كان يمد عقل الشيخ بنيران

الصور والأفكار مما يزيد من حيوية خطواته. وزاد من يقينه، وهو يرمق جسد القلعة التي تُزنّر عنقها حجارة تعانق السماء، إن حضور فضيلة في خياله لا يختلف في شيء عن تمثيل القلعة لروح المدينة. الناس والعمائر، وكذلك التاريخ المثقل بالأحداث والحاضر الذي يستمر في الولادة، يدورون حول القلعة، وهاهو الآن يدور حول فضيلة. المرأة المدهشة هي الآن تشكل مركز عالمه. فضيلة مركز العالم الذي رسم دائرة من حجر قدسي حول الشيخ حامد، فهو غير قادر على الخروج من تلك الدائرة، وهو إذا ما يتلو الآيات تدخل المرأة بين حروفها نقاطاً تتجمع في اسم فضيلة، فكان بعد انتهاء الصلاة يستغفر الله طالباً العفو لزلة روحه الهائمة.

وتوقف الشيخ أمام الأنوار التي تزين المدخل الرخامي لحمام (باب الأحمر). تذكر المرات التي دخلها مع الرفاق منذ سنوات المدرسة، وكانت ساعات الحمام واحدة من أجمل أوقات المرح والمتعة. وشاهد الشيخ رجلين يدخلان فتمنى لو أنه كان مع الداخلين إلى الحمام فقد تغسل مياهه أدران الضياع المتنامية بداخله، إلا أنه تابع طريقه بعد ذلك يدب على مسار الحلقة الواسعة التي تحتضن القلعة، فإذا به يصل من جديد إلى نقطة البداية. وقف أمام المدخل الذي ارتفعت أعمدته ضاربة جذورها في أرض الخندق. قال متأملاً الدرج العريض :

«متى توصلني الدرجات إليك يا فضيلة ؟»

شعر الشيخ بأن حركة الناس في الشارع قد بدأت تشوش على فراغ المنطقة، فقرر العودة. توجه إلى المسجد، وما هي إلا دقائق حتى كان المؤذن يبتدئ بأناشيد التسميع تمهيداً لإعلان أذان الفجر، وكان الشيخ يباشر الوضوء غير متأثر ببرودة الماء. وتدفق الرجال إلى صحن المسجد

متوجهين إلى قاعة القبلية لينتظموا جالسين خلف الإمام، وما إن رُفع الأذان حتى انتصب الجميع واقفين يقودهم خشوع الشيخ حامد في صلاة وجد الإمام فيها ملامح طمأنينة لنفسه.

ولم تجرؤ فاطمة على توجيه سؤال إلى زوجها تستفسر به عن غيابه المبكر، وكانت قد اكتشفته مبكراً فلم تملك سوى الانتظار. وعلى مائدة الإفطار تمنت فاطمة على زوجها الحذر من برد الخريف الذي يشتد في الصباح الباكر، فما كان من الشيخ حامد إلا أن تحدث عن أبو الفضل الذي يخشى عليه أكثر من البرد. ومالت فاطمة إلى الصمت فيما تسرق النظرات من وجه زوجها الذي لا ينمُّ عن شيء غير عادي. وبينما يرشف الشيخ الشاي كان يحس برغبة جامحة للذهاب إلى النوم، إلا أنه سرعان ما تذكر ارتباطه بموعد صباحي مع الرئيس الجديد للأمن العسكري. فقام كي يهيء نفسه استعداداً لذلك اللقاء.

وكان احتفاء (العميد فاضل) بضيفه قد شهد حالة خاصة في مبنى الفرع. اصطف رتل من الجنود بلباس مدني فامتلأ بهم طرفا المدخل وقد ارتفعت أذرعتهم بالتحية للضيف الاستثنائي مع مرافقين أذهلتهم طريقة الترحيب بشيخهم الذي قاده مدير المكتب إلى الداخل بحفاوة بالغة. واستقبل العميد ضيفه عند باب المكتب بعناق قاده بعده إلى الداخل. وتصدر الشيخ المكان كما لم يحدث لزائر أن فعل من قبل، فظهر أن جانبه المُهاب يلقى ما يستحقه من احترام، وكان اللقاء الأول مع رجال الحكم الجديد يشعر بأن النظام مازال يعير الشيخ حامد أهمية مؤثرة وقد لا يلقاها شيخ آخر.

وأصغى الشيخ باهتمام إلى حديث العميد فاضل الذي أشار إلى أن الحكومة في العاصمة توليه التقدير الكامل لذا فستناط به مهمة تنظيم

المساجد والجوامع في كافة أرجاء المحافظة وسيكون مرجعاً لكل الأئمة في خطبهم أيام الجمع والدروس الدينية، وقال إنها في تقديرها لمكانته الروحية بين الناس ستثمن تعاونه في ضبط الأمور لخدمة الوطن. وهتف العميد:

«أليس حب الوطن من الإيمان ؟»

وأدرك الشيخ حامد في ذلك اللقاء أن الحكومة ستتعامل معه منذ هذه اللحظات على أنه الأول بين المشايخ وكذلك أصحاب الطرق في المدينة، فلمعت عيناه وانبرى لسانه بالحديث عن دور الحزب في تعميم الرخاء على البلاد وإقرار الأمن وبث الطمأنينة في النفوس. ووجدها فرصة مناسبة ليسأل عن مصير أعداء النظام ضارباً المثل في هارب هو المقدم تركي. وما إن وصل أسماع الرئيس ذكر سلفه حتى ارتسم الامتعاض على وجهه فهتف قائلاً:

«هو المقدم الخائن، فالخيانة هي اللقب الوحيد الذي يستحقه هذا الهارب من وجه العدالة. تصور فضيلتك أن غباء المذكور في عمله الخفي ضد الحركة التصحيحية كان سيؤدي إلى مذبحة في أوساط الحزب»

وأضاف العميد وهو ينتفض غضباً :

«لن نرحم الخائن يوم يقع بين أيدينا، وهذا اليوم قريب»

وتساءل الشيخ ببراءة خبيثة:

«قريب ! يعني أنكم تملكون معلومات أكيدة»

فقال العميد متلاعباً بمسبحة الكهرمان:

«آخر الأخبار التي وصلتني تشير إلى أن المدعو تركي قد هرب إلى بلد قريب. أرشح أنه العراق»

وكان الشيخ حامد يخطط كي يطول الحديث عن تركي، فقال:

«لابد أن هناك اتفاقات بين الدول لاسترداد المجرمين، وأظن أن بيننا وبين العراق وتركيا وغيرها مثل تلك الاتفاقات»

فقاطعه العميد بلهجة التحسر:

«ليتها الأمور سهلة هكذا يا عزيزي الشيخ.. ليتها كانت»

وما لبث الرئيس أن طوى صفحة المقدم تركي فيعود إلى الحديث عن أهمية رجل الدين في المجتمع، معرجاً من جديد على دور الشيخ حامد بين رجال الدين في المدينة، وكان بذلك يضع نهاية لهذا اللقاء الذي اعتبره كل من الرجلين أنه أعطى ثماره.

وفي المساء كانت المكالمة الهاتفية التي بدأها الشيخ بطلب فضيلة التي كانت على الطرف الآخر. جعل الشيخ يزف نبأ العثور على بداية الحل، فتركي كما قيل له قد لجأ إلى العراق، وهذا سيتيح الفرصة للسلطة كي تطلب رسمياً استرداد الهارب

«فسيكون هذا الأمر مفتاحاً لبوابة الأمل في حصولك على الطلاق»

فكان تعليق فضيلة على ذلك أن ما يهمها هو الحصول على الحرية بأي شكل كان، وكانت آهتها تلهب الشيخ وهي تهمس بصوت مثير:

«هل يمكن لامرأة مقيدة أن تعلن عن تعلقها برجل هو الوحيد من بين الرجال ؟»

وكأن الرسالة وصلته، فكان الشيخ وهو يقاوم ارتعاش جسده يبحث عن تعليق فقال معلناً أن وعده لها بالعثور على حل لمشكلة زواجها لن يتراجع عنه، وهو لن يتأخر عن فعل أي شيء يحقق أمنيتها، وما إن توقف عن الكلام حتى تساءلت فضيلة:

«وما حكم الشريعة في أن تخفي المرأة مشاعرها عن رجل أُعجبت به؟»

فعجز الشيخ عن الرد بكلمة وقد أُخِذَ بكلماتها المباغتة، فأنقذت فضيلة صمته العاجز بكلمات قصدت التعثر في لفظها:

«لم يعد لي غيرك يا حامد ألجأ إليه. كن معي. كن معي أرجوك فأكون معك دوماً»

وكان الشيخ حامد في غرفة خلوته مستلقياً على الأريكة، وما إن استمع إلى قول فضيلة حتى استوى في جلسته وهو يحدث نفسه:

«أي فخ وقعت فيه، وإلى أين تسير حكايتك؟»

وهكذا كانت روحه مستمرة في التمسك بالصمت، فيستمر السكون بين الاثنين المقيمين على طرفي الهاتف. وانطلقت فضيلة من جديد تحرك أمواج البحيرة:

«لم أسمعك تعلق على قولي بشيء. هل مازلت معي يا حامد ؟»

فخرج الرد من الشيخ بطيئاً وهو يقول:

«إذا كنت تقصدين أن أتابع مساندتي لك، أقول وأكرر وسأظل أقول يا فضيلة فليطمئن قلبك»

وتسلل همسها إلى أعماقه وهي تفح بالقول:

«لن يطمئن قلبي إلا بوقوفك معي. لا تتخل عني يا حامد»

فانطلق هاتفاً تشتعل الحرارة في كلماته:

«وهل أجرؤ على التخلي عنك يا فضيلة ؟»

فبلغته كلماتها المشتعلة وكأن فمها يلتصق بسمعه:

«لا أريدك إلا أن تكون معي. قف بقربي أكثر وأكثر وأكثر»

ولم تكن هناك فرصة للشيخ حامد في تعليق أو رد، فقد سمع فضيلة تتحدث بجدية وكأنها تخاطب غيره بعد أن دخل أحد عليها فجأة فلجأت إلى التمثيل.

«ولا تنسي يا عزيزتي أن تقبلي الصغير وتضميه إلى صدرك كأني أضمه»

وأقفلت الخط وقد ارتسمت على فمها ابتسامة ماكرة، فهاهي تمسك بكل الخيوط بعلاقتها بالشيخ فتقول ما يجب أن يقال وتتوقف عندما تريد. وكان الشيخ حامد ما يزال ممسكاً بسماعة الهاتف وقد امتلأت خلوته بظلام تفتح عن آلاف الأزهار وهي ترسل برائحتها المسكرة.

أكان ذلك المساء تاريخاً فاصلاً في حياة الشيخ حامد، وكانت كلمات فضيلة البوابة التي سيدخل منها إلى مرحلة جديدة ؟.

اعتذر الشيخ حامد في اليوم التالي عن استقبال أحد وفق مواعيد سابقة، كما كلف رجلاً من الأتباع بإقامة الصلوات بدلاً منه، ومضى مع سائقه تتجه السيارة بهما إلى المزرعة مقرراً الاعتكاف فيها لساعات. وكان قد وقر في ذهنه منذ الصباح أن الوقت قد حان لاتخاذ قرار يضع به حداً لعواطفه، فهو المعتمد الآن كممثل لكافة رجال الدين ولا يليق به أن يذهب بعيداً في مغامرة عاطفية لا يعلم متى تتوقف.

«لا يمكن أن أضحي بتراث أخذته عن الشيخ عصفور. لك الآن آلاف المريدين والأتباع فلا تجعل الأهواء تنسف ما بنيته»

وتساءل كذلك في سره مستلقياً في صالة المزرعة وهو يتأمل القبة التي تفتحت عيونها الزجاجية على السماء تقود أنظاره إلى تأمل عميق:

«متى يمكن لطلاق فضيلة من تركي أن يحدث. وهل يمكن أن يحدث؟»

واستوى جالساً يقلب مشكلة فضيلة على أكثر من وجه، فتساءل:

«ألن يكون غياب الزوج الطويل مبرراً للزوجة في طلب الطلاق ؟»

ثم تساءل بغضب خفي أحاط به:

«ألن يكون هناك حل قانوني لغياب زوج خرق القانون؟»

واستمر في حوار مع ذاته فدار حول شك له علاقة بالفترة المحتملة لانتظاره قرار الطلاق. تمتم قائلاً:

«أيمكن للانتظار أن يكون هو العقاب ؟»

بعد ساعة من التأمل المضطرب خرج الشيخ إلى الحديقة، وكان سائقه ظافر قد ذهب لإحضار طعام. وكان البرد يشتد عندما تدخل الشمس أحياناً خلف الغيوم المتلبدة ثم ما تلبث أن تظهر، فبات هذا التناوب يشكل ذبذبة تعكس ما يدور في روح الشيخ حامد. وظل يمشي بين الأشجار، يتوقف لحظة فيفكر:

«فضيلة. حامد. ما هذا العدل الذي يجمع فضيلة بحامد»

بعد الغروب كانت العودة إلى المدينة. لم تكن الخلوة مثمرة كما تمناها. وتوجه الشيخ حامد إلى غرفته في المسجد ليرابط عند الهاتف تتنازعه رغبة في الاتصال بفضيلة ما يلبث أن يلجمه قرار الانتظار لرنين يحدثه اتصالها هي. ولم تطل فترة التنازع فقد حمل الهاتف القادم صوت الأنوثة التي لا تملك مثله عادة امرأة غير فضيلة:

«أتراها أشغالك، أم صلواتك، أم ماذا، فلم تحادثني !»

ومنعه استمرارها في الكلام من تعليق، وبمرح كانت تقول:

«أليس عندك حجة مقنعة ؟»

وحرمه قولها من الإجابة:

«سأمضي ليلتي يوم غد في بيتي وليس في بيت أهلي»

ومضت قائلة بصوت يكسر ليونته إغراء مثير:

«في بيتي يمكن لنا أن نتحدث بحرية. أتمانع يا حامد أن نتحدث بحرية، فلا رقيب ؟» وقال الشيخ كمسحور:

«نتحدث بحرية دون ريب»

وطلبت أن يمسك بالورقة والقلم ليسجل عنوان البيت، فجعل الشيخ يبحث مرتعشاًعن قلم. قالت فضيلة بخجل عذراء:

«الحديث بيننا وجهاً لوجه سيكون أكثر فاعلية. ألا تعتقد ذلك ؟»

وانتفض الشيخ حامد في جلسته. لقد فاجأته الدعوة المثيرة فلم يملك إلا الوقوف فزعاً، وقد ترك سماعة الهاتف جانباً. بعد لحظات عاد ليخبر محدثته أنه كان يبحث عن قلم. قالت:

«خذ العنوان عندك. لن تجد صعوبة في العثور عليه»

وفيما يسجل على الورق كان يغرق في فراغ اليوم القادم وكأنه مجهول وُعِد به كي يغرق فيه.

«إنك تسقط. الشيخ يسقط، فمُدَّ له يا حامد يد العون».

«ما أصعب السقوط !»

-٦-

ابتدأ اليوم الموعود باستمرار الحيرة والقلق في روح الشيخ حامد وقد سُرق منه خشوع الصلاة أو القدرة على حديث مع أي إنسان، وتوالى اضطرابه حتى المساء. إلا أنه في لحظة حاسمة وجد نفسه يتخذ القرار فكان يشعر أنه حامد دون مشيخته، وعليه أن يمضي إلى موعده.

خلع لباس المشيخة، وخرج من المسجد كرجل مدني يخفي ملامحه. تلفح رأسه ومعظم وجهه بمنديل ومضى. توجه بالتاكسي إلى (المحافظة) كما كان العنوان يقوده. ولم يستغرق عثوره على الهدف زمناً، إلا أنه وقف أمام باب العمارة وهو يتخيل أنه على صراط يخشى أن يميل إلى طرف منه فيحترق وإلى الآخر فيغرق، فما كان منه بعد قليل إلا أن امتدت قدمه لتحقق أول خطوة له في المدخل الفسيح باتجاه الجنة الموعودة.

كان لهيب الشوق يدفعه إلى ارتقاء الدرج، واندفع إلى أن أوقفته ساقاه عند الباب المطلوب. (منزل فضيلة أبو خشبة) هو ما أظهرته الرقعة المعدنية الرمادية وقد التصقت بالخشب الأبيض. وظهر الباب للشيخ شفافاً كالبلور فخيل إليه أنه يكشف عن شبح امرأة ولدت لتوها من رحم غابة تنفث أشجارها نسيماً معطراً يتغلغل في الأوصال، فيجد ذراعه تلامس زر الجرس كمراهق لا يضمن نتائج أعماله أو أنه خائف من أن يظهر له أحد غير فضيلة.

انشق الباب عن الطمأنينة، وظهرت فضيلة. نور يشع. وسمع حامد ما يشبه الفحيح يكبله بخيوط تشده فتستدعيه ليدخل، وكانت تلاحق سمعه الحروف المتكسرة التي تنطق بها الأنثى فيتشكل اسمه له وكأنه يولد من جديد

«حامد.. أهلاً بحامد»

ووجد الشيخ نفسه في الصالة يواجه قامة فضيلة التي انتصبت كشجرة تمرحنة خرجت عن قوانين الطبيعة ، قالت وهي تقوده إلى ركن قريب:

«أهلاً حامد. أهلاً بك الآن وغداً وفي أي زمن»

كان الجسد يملأ الثوب الذي لا يميز فيه السروال الهفهاف من الرداء. جلدها الوردي يختلط بلون الثوب، والشعر الذهبي يلتف حول نفسه فيصبح تاجاً يكلل وجه فضيلة المشرق بفرح يشبه الإطلالة الأولى للشمس من عمق الأفق. وكانت المرأة على المقعد المقابل لحامد ترسل بنظراتها لتلتصق بالضيف فيستسلم لها وهو يبحث عن كلام ينطق به فلا يجده. وقالت بنعومة اقشعر لها بدن حامد:

«أرى أن أي ثياب تليق بك. جليل في الجبة، وأنيق في البدلة»

وقالت وهي تنتقل إلى مقعد آخر أقرب إلى حامد:

«تعجبني دقتك وأنت تلتزم بالحضور في الوقت المناسب. أحب الرجل الملتزم»

وتضيف وهي تحرمه من الكلام:

«هذا يوم السعد فأهلاً بك في بيتك»

فكانت ابتسامة حامد مدخلاً لقوله:

«كان العنوان واضحاً، لذا اهتديت إليه بسهولة»

ويكتشف أن النور الهادئ في المكان يشبه الموسيقا التي كانت تنبعث بنعومة من صندوق يقع في الزاوية. وسمع فضيلة تخاطبه:

«مهما كان عنوان بيتي بعيد اً، أو أنه في أعماق مخبأة فأنت الذي تهتدي إليه. أنت الوحيد الذي سيجده»

وتقول وهي تتثنى في جلستها:

«أنت واضح وهكذا ترى كل شيء بوضوح فتذهب إليه مباشرة»

كان العطر الذي ضمخ المكان سبباً في حيرة الشيخ وهو يفكر في مصدره، أينبعث من جسد فضيلة، أم هي السماء ترمي به احتفالاً بهذا اللقاء. وجالت عيناه في أرجاء الصالة الأنيقة فكانت فضيلة هي الحضور الحقيقي بين كل شيء من أثاث وغيره. وحدها السجادة بألوانها وزخارفها كانت ببهجتها تشارك ألق فضيلة، وعاد حامد إلى المرأة بنظرات تحولت إلى رقى، وكأنه بها يريد أن يحميها من اشتهاء يغلي في روحه. وسمعت أثناه قولها يأتيه من بعد سحيق:

«أنا سعيدة لكوننا وحيدين. أيضايقك ألا يكون أحد معنا ؟»

عجز عن إيجاد كلمة يرد بها، فقامت عيناه بالمهمة. قالت من جديد:

«ونحن وحيدان يمكن لنا أن نتحدث كما نشاء»

وما لبثت أن تجاوزت صمته، قالت كضعيفة تطلب المعونة :

«هل أسمع منك يا عزيزي عن خطة تفك أسري. أريد الحرية»

«من الأسير ؟ أنت أيتها الفاتنة أم هذا الرجل أمامك تكبله قيودك ؟»

هكذا نطق لسانه بصمت المرارة التي تتجمع في فمه. وقال بصوت مسموع:

«من يجرؤ على أن يجعل من فضيلة أسيرة ؟»

وسمعها تقول بحرقة صبَّت الزيت على ناره:

«أيهمك حقاً، أيهمك أن يفك زوجي الهارب من أسري ؟»

واندفع قائلا وهو يتحرر من تحفظه:

«أنا الذي يهمه ذلك. أنا هو يا فضيلة»

فتلوَّت في مقعدها، وجعلت تتمتم بكلمات واضحة:

«فاجعلني حرة إذن. حررني.. ولو من أجلك»

سكون. شبكة السكون تتداخل مع الضوء والموسيقا الهادئة. دقائق السكون تتضخم وكأنها ساعات. كان فخذا فضيلة يلتصقان بقماش السروال، وكان اللحم ينبض كجمر يحرق نظرات حامد التي كان يختلسها من الأنثى بين حين وآخر. وهب حامد فجأة واقفاً ليتجه نحو لوحة الكانفاه على الحائط، ويقول مشيراً إليها:

«لابد أنها من صنعك. أتصور أن دقتها لم تتحقق لولا إتقانك»

فكانت عينا فضيلة تشارك لسانها وهي تخاطب جليسها:

«أتقن ما هو أفضل من لوحة. ألا تراني أتقن ؟»

وإذا ما وقفت على قدميها، تابعت قولها:

«سأعد لك فنجاناً من القهوة لن تنساه. أما العشاء فقد أعددته، وستحكم بعد القهوة أيها أكثر إتقاناً»

ومضت في طريقها إلى الداخل تلاحقها عينا حامد وهي تتابع:

«لن يكون في فنجانك ذرة سكر لأني سأغمس أصبعي فيه. أيرضيك ذلك ؟»

وسمعها تقول وقد اختفت عن عينيه:

«لم أسمعك تقول أي أصبع تفضل»

ولم تكن الفرصة كافية لحامد أن يتلذذ بكلمات فضيلة، فقد بلغت مسامعه نقرات خفيفة على الباب الخارجي للدار. أصغى متخوفاً ولكنه لم يستطع أن يبدي حركة في جلوسه على المقعد بينما عيناه تلتصقان بالباب. وإذا ما تسارعت النقرات ظهرت فضيلة من الداخل وقد ارتسم على وجهها تساؤل لم يفهم له معنى. تبادلت النظرات مع حامد، فهي لا تتوقع مجيء أحد، وقالت هامسة:

«حتى الجيران لا يعرفون أن أحداً يوجد في البيت»

وتوجهت بخطى حذرة لتطل من العين السحرية على الطارق، فإذا بصوتها ينطلق مختنقاً:

«إنه هو.. إلهي إنه هو»

وكانت عينا حامد تستفسران عن ذلك الـ (هـو). وكانت فضيلة تهتف بصوت يكاد الذعر يخنقه:

«تركي. تركي في الخارج. إنه هو»

ودقت المفاجأة مساميرها في قدميْ الشيخ حامد. لبث جامداً كتمثال. لم يغادر مكانه وقد تعطل عقله وشلت قدرته على النطق بأي قرار

«هل أفتح له. قل لي هل أفتح الباب ؟»

ووجد حامد نفسه يرد على التساؤل بآلية صماء وهو يردد:

«إنه زوجك. مازال زوجك»

وظلت الحيرة تمسك بفضيلة فيختلط الذعر عندها بالضياع، إلا أنها مع تصاعد الطرق على الباب يرافقه صوت يناديها باسمها، امتدت يدها لتفرج عن الانغلاق الذي اختارته.

واندفعت كتلة تركي كقذيفة وهي تتمالك نفسها خوف السقوط على الأرض. وأصبح تركي في البيت، وكانت لحيته السوداء تملأ وجهه فبدا كهارب لم يعرف الراحة منذ أيام وغبار ملابسه يوحي بأنه قضى زمناً يتنقل كهائم على وجهه. هتف تركي:

«ها إني أعود إليك يا فضيلة. لقد حضرت أخيراً يا حبيبتي»

حامد ذاهل، وفضيلة تغرق في دهشة تعجز عن لجمها. تركي يستطلع المكان والقائمين فيه. تطلع تركي إلى حامد وكأنه يكتشف حضوره لتوه، فيهتف بود:

«شيخ حامد.. صديقي حامد»

وتقدم منه وهو يقول:

«لقد عدت يا شيخ حامد. تركي يعود إلى حيث انتمى»

وقال الشيخ وهو يصافح الغائب في محاولة للتغلب على اضطرابه:

«أهلاً بك مقدم تركي. ها أنت تعود فمرحباً بك»

وبينما تستمر فضيلة في وقفتها، كان تركي يرمي بنفسه على المقعد القريب الذي يبدو وكأنه تحول إلى نهاية رحلة، وجعل يخاطب فضيلة:

«لقد عدت. أخيراً عدت إليك. من أجلك أعود بالرغم من كل المخاطر»

وإلى الشيخ حامد يقول له:

«لم أستطع أن أبتعد، وهاأنت تراني أعود. ألم يكن القرار صائباً ؟»

مرت الدقائق وصورة المكان تظل كما هي لا يتغير حال أي من الذين فيه. تحول الزمن إلى وجوم مخيم. وقف تركي من جديد وهو يتأمل الصالة وكأنه يراها لأول مرة. قال:

«أحسنت يا فضيلة بعودتك إلى بيتك. إنه حقاً يليق بك»

آنذاك لم تستطع فضيلة أن تقاوم غضبها الذي كان يتجمع فيها ببطء. صاحت بحزم:

«لماذا عدت يا تركي ؟ هل ستضع عودتك نهاية لهذا الزواج ؟»

فما كان من تركي إلا أن تجمد في مقعده وانفتحت ساحة وجهه عن قناع الاستغراب والفزع فصاح ذعره:

«نهاية لزواج من ؟»

وهتف بغضب وهو يقف على ساقيه:

«أتخطى كل المخاطر كي أعود إليك فلا أسمع منك سوى قرار الإعدام!»

وتقدم خطوة من فضيلة فتراجعت خطوتين. قال بضعف:

«الحب هو الذي أعادني والحب سيبقيني»

وتراجع من جديد تسحبه قدماه إلى المقعد. يجلس منهكاً ويقول:

«لابد أن الشيخ حامد قد سلم الرسالة.كنت أعلم أنه لا يتأخر في إعطاء الرسالة»

واحتلت القسوة ملامح فضيلة وهي تقول بلهجة صارمة:

«الشيخ حامد هنا، وأمامه سترمي باليمين»

فتساءل تركي ببراءة من يتجاهل فهم أي شيء يضرب سمعه:

«اليمين ! أي يمين يا حبيبتي ؟»

«يمين الطلاق يا تركي. الأفضل لك أن تضع حداً لزواجنا»

«أي حَدٍّ وأي طلاق يا امرأة !»

وانتفض تركي غضباً وهو ينقل عينيه بين الواقفيْن أمامه جامديْن كتمثاليْن. ضرب تركي الأرض بقدمه رافضاً، إلا أنه تحول فجأة إلى مستعطف وهو يقول:

«لا أفهم يا حبيبتي ما يحدث الآن. أقسم أني لا أفهم شيئاً»

وهتفت فضيلة بإصرار حوّلها إلى لبؤة غاضبة:

«الأفضل لك أن تفهم يا تركي. إفهم أن حياتي لا يمكن أن تستمر مع هارب يلاحقه القانون. إفهم يا تركي»

«لا أفهم. لا أستطيع أن أفهم يا فضيلة. كل ما أعلمه هو أني أحب زوجتي. وأنت زوجتي»

«الأفضل لك أن تفهم قبل أن يفوت الأوان»

فاستوى تركي في جلسته وقد عادت إليه كبرياؤه. قال بتصميم:

«لست من نوع الرجال الذين يتراجعون. أحببتك وسأظل أحبك، وأنت زوجتي. هل تدركين معنى الزواج. إنه الشرع يا فضيلة»

صاحت فضيلة وكأن أمواج اليأس تدركها بالغرق:

«إسمع يا تركي. أقسم لو أنك لم ترمِ اليمين فسأكون أول من يبلغ عنك»

وبدا تركي وكأن خطواته تزحف نحو حامد، فناداه بقوله:

«هل تصدق ذلك يا صديقي. هل تصدق يا شيخ حامد ما تقوله زوجتي»

وكان حامد مستمراً في صمته الحائر، إلا أنه عاد فجأة إلى مشيخته قائلاً:

«سحابة وتمر يا أعزائي. أرى أن الأفضل للجميع يكون في إعادة النظر في كل شيء على ضوء الصبر والحكمة»

فصرخت فضيلة وهي تبتعد عن تركي الذي كان يحاول الاقتراب منها:

«أي صبر وأية حكمة يا شيخ حامد ! وهل بقي للصبر مكان ؟»

ثم ضربت الأرض بقدمها وهي تهتف بصوت بُـحَّ لقوته:

«الطلاق. الطلاق ولا بديل عن الطلاق الآن وبحضورك يا شيخ حامد»

كان تركي واقفاً يتلبسه الضعف وقد لمعت عيناه بشروع في دموع قد تنفجر في أية لحظة. هتف بمذلة:

«أنا تركي يا فضيلة. تركي الذي أحبك بجنون. أيمكن للحب أن يُنسى !»

كان الصمت المتفجر يتنزل بهدوء. دموع تركي صامتة. حامد في حيرة ترافق سكونه. غضب فضيلة يغطي جلدة وجهها المُتَتمِّر. وانثقبت خيمة الصمت بضجة جاءت من باب الدار وكأن المطارق تريد أن تقتلعه. واشترك الثلاثة بالذعر فتسمر الواحد منهم في أرضه يتفتح سمعهَ ومسامه للأصوات الخارجية. وتحركت فضيلة لتطل من العين الساحرة على الخارجَ فما كان إلا أن خرج صراخها المكبوت من الحنجرة:

«مسلحون يقفون وراء الباب»

هتف تركي بصوت ضعيف خذله الرجاء وهو يحذر من أن يفتح الباب، وكان الشيخ حامد يتراجع بخطى حذرة ليختفي في غرفة قريبة. غاب عن المشهد، ومن ظلام الغرفة كان حامد يصغي مستمعاً باهتمام إلى كل شيء يجري.

ويبدو أن الباب الخارجي قد فتح خلعاً. تدفقت عشرات الأقدام وتعالت أصوات. واحد من المقتحمين يصرخ بقوله «إن هذا هو الهارب يا سيدي». لم يكن هناك صوت لتركي في الزحمة المشتعلة. سمع قائد المجموعة يقول:

«تبعناك ساعات، وها أنت تقع أخيراً. كبّلوا الخائن»

جاءت كلمات القائد بعد لحظة أكثر هدوءاً:

«سيدتي، نرجو ألا يكون المتهم تركي قد أساء إليك»

وسُمع الصوت نفسه يقول بتهذيب بالغ:

«لو سمحت يا سيدتي بمرافقتنا. أقوالك للسيد العميد ستكون لها فائدة، وأعدك أنك ستعودين إلى بيتك بكل احترام»

فلم يُسمع لفضيلة قول يعارض الدعوة. وبلغ الشيخ حامد بعد فترة صوت إغلاق الباب الخارجي، فما عاد أحد في البيت سواه، خرج من الظلام إلى ضوء الصالة التي شعر بترحيبها به. أدرك أنه قد نجا وهو يقترب من الباب الخارجي بحذر ويعطي سمعه لأصوات الأقدام المبتعدة.

* * *

في خلوته أقفل الشيخ حامد على نفسه، وكان المسجد في منتصف الليل يفتح ذراعيه لفراغ يخيم على كل ركن فيه. وقف الشيخ على صخرة التفكير التي تفتت لتوها وتناثرت إلى مئات من الذكريات والصور، فكان غبارها يحجب عنه وضوح ما حدث في تلك الليلة، فتساءل:

«هل كان حقيقياً ما حدث ؟»

استفسر من نفسه عن حقيقة احتجابه عن عيون الفضيحة التي كادت أن تلحق به لولا لطف الله. وإذا ما أسدل ستار النسيان على ليلة لا تشبه شيئاً في حياته، توافدت على شاشة رؤيته أيام الطفولة لحقت بها أيام الثانوية. وهاهو يتذكر بوضوح لامع عصابة الرفاق، أحمد هـايل، مجاهد وسليم، رشيد وتركي. إنهم يتوافدون عليه كتيارات تتلاطمه، ولكنه يعود إليهم كما كان في ذلك الزمان.

إنهم يمرحون ويحلمون ويتسابقون إلى النجاح. أيام البراءة ومتعة الأوهام. وتساءل:

«ما المصير. ماذا يفعل الرفاق الآن. هل يمكن للزمن أن يسترجعهم في حلقة واحدة تترابط أجزاؤها من جديد ؟»

وتساءل إن كانت حروفهم ستتجمع من جديد في جملة واحدة هي (الصداقة). هل انتهى زمن الصداقة والبراءة، أم تكسرت الأسماء لتتطاير حروفها متباعدة وتائهة في فضاء ما عادت تعرف له أبعاد أو حدود. هتف الشيخ في ظلمة الليل:

«وهل تطايرت حروفك يا حامد ؟»

حلب – حزيران ٢٠٠٦

فهرس

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠٠٧

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة



سعر النسخة داخل القطر ١٢٠ ل.س في الأقطار العربية مايعادل ٢٤٠ ل.س